

الهيئة العامة لقصور الثقافة

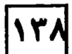
أصوات أدبية

١٣٧

ترنيمة للدار

قصص : ـــــــــــ يوسف أبورية

أصوات أدبية





الهيئة العامة
لقصور الثقافة

ترنيمة للدار

قصص

يوسف أبو ريه

٢٥ ديسمبر ١٩٩٥

اصــــوات أدبــية

إسبوعية

الهيئة العامة لقصور الثقافة

المراسلات باسم مدير التحرير

على العنوان التالى

١٦ شارع أمين سامى

القصر العينى - القاهرة

رقم بريدى ١١٥٦١

■ لوحة الغلاف

للفنان كمال عبده

القسم الأول

ترنيمة للدار

ترنيمة للدار

فى الخيمة المعتمة، حيث رقد الجند على الأسرة السود، يتصاعد لحن الحياة، خليطاً من الأصوات المتباينة المتداخلة، شادى الصغير، يغنى بصوت الطفل: يا حنينة يا عينى.. عينى يا حنينة.

التقطها من أفواه الصبية فى عرس إحدى القريبات، ضجة المذياع فى مقهى الأقرع ممزوجة بالسيمفونية الكلاسك منطلقة من مذياعى، بنداءات «عابد» بائع العرقسوس -يصلى على النبى.

وتك.. تك.. تك تأتى من غرب الدار، حيث الطاحونة العجوز تنفخ دخانها، فى ملل ونواح مجهد، يغطى عليه صخب أحجار الطاولة، وزعيق الرجال يسبون الدين، ويتنخمون البصاق الذى تمطى على الجدار المقابل.

هذا هو صوت الضحى فى دارنا...

أعرف المواقيت من الصوت الذى أحن إليه فى المنفى البعيد.. وأنا مثقل بالذكرى، والملامح الحادة القريبة.

فى الخيمة المعتمة، الصامدة للريح والشمس القاسية، أهرب إلى التبة العالية، أحلم. أستحضر التذكارات القديمة، فى محاولة لاخراجها فناً منسقاً، يدفعه الأمل المراوغ.

على التبة، وعبر نظرى الملقى على صحراء النبت الشيطانى، أرى دارنا..

نهارها يبدأ من المئذنة، تعلن للناس: أن الصلاة خير من النوم، وتسبح بمن تسمى قبل أن يتسمى.

فتهرول إليها سيقان كهلة متكسرة الخطو، تسير على وقع عصا هرمة، سابحة فى ترانيم صوفية تخرج من أفواه مهشمة.

فى الشارع الكبير يسير رجال ونسوة – يعالجن بقايا نوم خاطف – خلف حمير تشيل الخضر إلى أسواق المدينة.

وهناك يفتح اسحق بابه، هو أول من يقوم من بائعى الفول، وآخر من يبيع. إذا وقفت على سلم المحطة، أو على جسر النهر، أو بين هياكل الخشب فى السوق، أسمع يدى الحديد تهرس الفول فى الحوض العميق..

هذا الصوت عريق فى أذنى، يرعش القلب الحبيس..

فى سنى التوتر، والقلب الأمرد، كنت أسمعه مقبلاً من بيت فتاتى، ويدفعنى عبر ضباب الصبح للوقوف خلف الجدار، أرقبها فارعة قوية، على رأسها قدرة الفول، تنفث بخارها المحموم.. ولما تعود من دكانة أبيها أهمس لها بالكلمة التى دبرتها بالليل، أو



ألقى لها بالرسالة المطوية على زهرة اختطفتها من البستان المسور بالسلك والشوك المشرع.

قطار الخامسة يقبل من الجنوب، يقف بين الرصيفين لاهثاً، يطلق الدخان والصفارة التي تخفق لها حيطان الدور.

ترك -تحت المظلة- الجريدة والمجلة التي يسعى إليها بائع الأخبار، وبحرص طفولي بريء أبتاع الجريدة الأولى.. فتواجهني صورة السلطان المتحدية القبيحة، تعيد لذاكرتي ملامح من حكايات قديمة، مكثفة بالدم، ومنتهية براحة الخلاص..

الأخبار لا تسر، ما زال العالم ضدي، حتى الأغنية المترعة بالشبق لحبيب لا يوجد إلا على خيوط الأثير.

السرير يغري بالراحة والأحلام..

أعطي ظهري لموقف السيارات - صبيانه يصرخون بأسماء المدن البعيدة، ينفثون من أشداقهم أبخرة الصبح، كذلك الجند والتلاميذ والموظفون الذين احتشدوا بالسيارة التي ذابت في الشبورة.

السرير يغري بالراحة والأحلام...

برغم وابور بائع الطعمية القوي المتفجر، وبرغم ميكرفون المسجد الذي يخبر عن موت امرأة من الحي المجاور، ربما أخفى ضجيجه صوت جنين لحظة عبوره الرحم المظلم إلى ضوء النهار المبهر.

والنوم عادة موروثة، تذكر ببدائية الإنسان.

لما أنتبه ساعة الضحى، تكون الدار ضاجة بالنور الوفير، أطرده بشيش النافذة، لأفتح الكتاب على ضوء خفيف، وأطلق موسيقى المذياع، لتأتيني الأصوات المتباينة المتداخلة، شادى الذى يغنى، واحتدام أحجار الطاولة، وتكتكات الطاحونة العجوز.

أعيش بقية النهار الطويل، فى انتظار الليل القصير، وينقضى يوم، ويوم، ويوم، أرتدى بزة الجندية، وأحمل الحقيبة المكتظه بالهدوم والكتب لأبدأ رحلة الصحراء، وفي الخيمة المعتمة، أو على التبة العالية، يتجدد الشوق، وتتجمر الذكرى، وتقترب أصوات الليل والنهار، مجهدة بالنداء الصعب.

نهار أبيض بعيد

دق جرس الباب مع جرس المنبه فى نفس الوقت الذى حددته للقيام، كانت الغرفة باردة جداً، لم اشعل المدفأة خشية الإصابة بنزلة برد، تعطل السفر، وتهدد لياقتى، كنت أريد أن أرى كل شيء بقوة وصفاء، ولكن الشبورة واجهتنى منذ اللحظة التى فتحت فيها الباب، كانت تلتف حول جسد من جاء لإيقاظى، وتنتشر كتلتها فى المدخل، وفوق الأسطح، فتخفى النوافذ والأبواب والشرفات وأعمدة النور التى لم يبدُ منها غير بريق واهن جعل لنفسه مساحة محدودة من الضوء.

ولأننى كنت نائماً بملابس السفر لم أستغرق زمناً طويلاً فى رفع الحقائب والهبوط إلى الشارع.

كانت السيارة كتلة شبحية تضوى بنور أحمر شرير من الخلف، وتخترق بكشافات المقدمة أستار الشبورة. حين اتخذت مكانى إلى جوار السائق تردد فى أذنى أصوات الميكروفونات تؤذن للفجر فى مآذن وهمية بعيدة.

فى الشوارع النائمة كان يفاجئنا جسد لكلب يمشى وحيدا

منكمشاً على نفسه، يمرق بسرعة بعد أن قام من نومته ليتفادى الهلاك المباغت، كما كانت تفاجئنا أجساد لكهول تلفعوا بعباءات سوداء ويتوكأون على عصى غليظة وتهمس شفاههم الرطبة بأوراد الفجر.

الآن وقد استوت السيارة على الطريق المسفلت المضىء ضاعف السائق من سرعتها ذلك أن الرؤية هنا أكثر وضوحا والمساحة التى تتحرك فيها صارت أكثر اتساعاً.

بعد أن تركنا مبنى المستشفى على يميننا سقطنا مرة أخرى فى ظلمة صَلْدة مِنَ الصعْب جداً اختراقها، قلت للسائق: حاول. قال: كما ترى أنا أفعل المستحيل.

كان من الجنون أن نفتح زجاج النوافذ فالبرد بالخارج لا يرحم، وبخار أنفاسنا كان يتراكم على الزجاج، فيصنع طبقة رقيقة تتواطأ مع طبقة الشبورة التى أحكمت خيمتها علينا من كل جانب.

وقفنا أكثر من مرة لنمسح الزجاج من الداخل ومن الخارج، وعاودنا المسير، ثم توقفنا قبل أن ننحرف إلى الطريق الجانبى حيث سنمر بالقرب من إحدي قري الضواحى، سمعنا صوت مؤذنها يتضافر مع صوت المقرىء الذى يحلق صوته من البعيد من جهة المدينة.

الشبورة تتوعدنى منذ الزمن القديم، مع الخفقة الأولى للقلب،

كنت أفتح باب الصباح فأجدها أمامى بثوبها المشغول من الدانتيل، هى مثيرة للأحلام تعيد للذاكرة سرير الأب بالناموسية الضافية، وتحيى فى الأنف رائحته التى تفوح من موضع رأسه على الوسادة. الناموسية هابطة على جسدى الصغير من الأركان الأربعة فتحلق الروح وترفرف فى محيطها الواسع.

أجدها عل باب الصباح تحجز عنى دار جدى، وحوش الدار الكبيرة، وتخفى عن عينى بيوت الجيران، فتنهض الوحشة. العين التى تعيش فى الإمكان يستحيل عليها المشاهدة، وبيت المحبوبة هناك على ناصية الشارع.

هى الآن واقفة بزيها المدرسى تنتظر خروجى الصباحى، ومكوثى الطويل تحت العامود حتى موعد الذهاب إلى المدرسة.

أجوس وحدى فى البخار فيتلاشى جسدى، وتنتشر ذراته فى الفضاء، ولا أدرى هل أنا سائر على قدمى أم أنى أحلق بأجنحة بيضاء، لأدنو من عتبة البيت فأجدها أمامى فى دائرة مغلقة، دائرة تتسع لنا وحدنا، ورغم القرب واللقاء الحميم تنتابنى الرغبة فى الفرار. لا طاقة لى فى الوجود وحيدين، دون الآخرين، فى وقت غير هذا أتمنى غيابهم، واللقيا التى أحتشد لها فى الحلم، لا أطيقها فى التحقق، ابتسامتها مضيئة ووجهها المورد يقول هيت لك. أغمغم بتحية الصباح والأنفاس المضطربة تنفضنى، وقلبى الصاخب يزلزلنى. تخرج هى من الدائرة إلى خفاء

الشبورة فتتلاشى، وتترك في الصدر حسرة، فأحلق لأغلق الدائرة من جديد، أجدها أمامي تسير، لو أستطيع أن أمسك كفيها الرطبتين، لو أقترب حتى أتشمم فوح شعرها المنسدل على المريلة من الخلف، لو أني أنتهز انغلاق الدائرة وأقول لها شفاهة ما سطرته على الأوراق المختلسة، وتختفي مرة أخرى، وأحلق من جديد، ترفرف أجنحتي فوق البخار المتصاعد من الأرض ويهبط ثقل جسمي تحت السحب المتراكمة من فوق.

وأجدها الآن داخل الدائرة، تخترقنا من خارج المحيط أصوات الناس وكلاكسات السيارات وزمجرة القطار الواقف في المحطة التي نعبر بوابتها الحديد. فتقطر على رؤوسنا حبات الندى. على الرصيف جاورتها، ودنوت رغم أطياف الركاب المنتظرين، سمعت الفرقعة فتأكد قرب قدوم القطار، اهتز بدنها للصوت المدوي فنطقت قائلا: لا تخافي إنها كبسولة التنبيه. وتجرأت على طلب الموعد الليلي فجاوبتني بسهولة، والبسمة الودود لم تفارق ثغرها المضموم، قلت: سأنتظرك تحت الشجرة في فراندة البيت الكبير. وأسرعت من خطوها ضامة حقيبتها السوداء إلى صدرها.

ظللت في الدائرة وحدي حتى تقوضت جدرانها بكشاف القطار القوي، نوره أقوى من النهار، يخترق مسام الجلد، ويندس في الضلوع ليكشف سرها الخفي.

وقفنا خارج السيارة نستطلع المكان فلم نر شيئاً من حولنا، كنا نتحسس جسد السيارة حتى لا نفقد المسافة بيننا. قال السائق: يمكنك التأجيل.

- كيف وقد حجزت!!

قال وهو يفتح باب السيارة: التأجيل سهل.

ملت برأسى لأمرق إلى المقعد. واحتوانى دفء الداخل.

قلت: إنها تنتظرنى على موعد الرحلة.

وأدار الموتور متبرماً، تقدمنا عدة خطوات، كانت السيارة تمشى فوق أرض وعرة ترتفع إلى أعلى ثم تهبط فجأة فى انحدار غير مأمون، العيون المفتوحة فقدت جدواها، وضوء الكشافات لا يكشف إلا القليل. رضينا بهذه الحركة المحدودة، وتمنيت أن يظل السائق راضياً عنى وعن رحلتى حتى نجتاز هذا الطريق الترابى، ربما يكون طريق الأسفلت أكثر أماناً، قلت له: الصعوبة هنا فقط حين نخرج للطريق العمومى ربما تتضح الرؤية.

- العمومى أكثر خطورة لأننا سنواجه كثير من السيارات.

توقفت السيارة فجأة، وهدأ صوت الموتور، فاتضح لنا نباح الكلاب وأصوات المآذن التى صارت أكثر قرباً، فتح الباب ليهبط إلي الأرض وعاد إلىَّ مشيراً إلى الطريق المقطوع.

- انظر لترى بنفسك.

كانت هناك قناة محفورة ما بين الزرع الروى والمصرف الموازى للطريق، ودون أن أجيبه رحت أرفع الحجارة الطينية الكبيرة لأسد بها القناة، وهو من جانبه بدأ يدك بأقدامه الحجارة، ليسويها بالأرض ليتمكن من العبور.

هى نفسها كانت تقف ورائى حين خرجنا من غرفة النوم الدافئة، فتحت باب الشرفة لأطالع الطريق، قلت لها: هذا موعد نزولى.

– خد بالك من نفسك الشبورة نازلة بثقلها.

لم تكن تبالغ لأننى حين نظرت لم أر شيئا البتة، وفى أيام الصيف كنت إذا سمعت انطلاقة الميكروفون تتهيأ لتسابيح الفجر، أنخلع من حضنها لألقى نظرة على الطريق، فأرى مصابيح المدينة تبرق من بعيد، فتزيل من قلبى وحشة الظلام والخوف من العودة الباكرة من هذا المكان النائى.

ارتديت معطفى الثقيل، قبل أن أغلق أزراره دخلت بجسمها النحيل بين دفتيه لتجمعنى بين ذراعيها، خطفت قبلة الرحيل. بعدها سحبت ضلفة الباب، ونزلت السلم محاذراً، كانت الشقة المقابلة مغلقة على روائح النوم وبكاء الطفل الذى قرصه الجوع فقامت يده تجوس فى جسد الأم الممدد بحثاً عن الثدى المكنون فى دفئه.

الشبورة تجول بين العمارات المرتفعة وتقف على أول الطريق

تتلاطم كتلها الكثيفة كأمواج بحر عاصف، وأنا أهمس للقلب المضطرب: تماسك.. لا بديل عن العودة إلى البيت.

عيناى عاطلتان تماماً، أجعل ذراعى أمامى لأجوس كالأعمى فى عماء الشبورة، دائرتى هذه المرة محدودة، فصلت على قدر هيكلى، فلا امتداد لها.

أقول لنفسى: أنت الآن كالصوفى الذى يعيش الحلول، أنا الكون والكون أنا .استحلت إلى بخار متطاير، البخار هو امتداد كينونتى.

وأسائل نفسى: هل أنا الآن فى حالة العدم؟

وأرد على نفسى: بل حالة الوعى المطلق، لأنك صرت جوهراً فارق النسبى.

النباح يقترب كلما دنوت من الطريق الرئيسى، هذا الكلب الأسود أعرفه، كل مرة أحاذره، فى القدوم الليلى وفى العودة الصباحية، حاولت أن أكسبه، وأحوز صداقته، ولكنه هذا النكد عصى على الترويض، إنه فى حالة عداء أبدية مع البشر، وأحس أنه يدرك سرى، ويبدو لى أنه عصبى المزاج يدعى الحفاظ على القيم، وإن كان فى النهاية مجرد كلب. إننى أخشاه أكثر من شواهد الموتى التى أتركها الآن خلف ظهرى.

صار الوصول إلى الطريق الرئيسى أمنية غير متحققة، فهناك ربما تمرق سيارة استأنس بنورها أو بصوت موتورها، فيتأكد

لى الوجود الحى للبشر الآخرين، هؤلاء الذين أشاركهم تلك الحياة، لا يهمنى الآن أن يمر علىَّ عابر، فتثير عودتى المبكرة من هذا المكان النائى الشكوك فى نفسه.

ألمح جدران دائرتى المغلقة تتمطى، وتتباعد، قد تنهار مرة واحدة، فينكشف الوجود كله. الدائرة تتسع وتتسع فتدخل منها وجوه لموتى أعرفهم، عاشرتهم، وعشت بينهم يوماً، ورحلوا منذ عهد بعيد، هذا وجه أبى يدخل الدائرة ويتضح هيكله ملفوفا فى الكفن الأبيض، ومن ورائه تأتى أمى ثم يأتى نفر آخرون فى صف لا أرى نهايته، بياضهم ممتزج بشفافية الشبورة. فلا أدرى أهم أطياف أم أن الشبورة تتخلق على شاكلتهم؟؟ إنهم يتحلقون حولى، ويغلقون علىَّ الدائرة. أنا الآن بين دائرتين، لا فكاك لى، توقفت قليلاً حتى تقدم منى أبى، رفع يده العظيمة من تحت بياض القماش الذى انهال كقطن مندوف، ولمس بيده شعرى، ودنت أمى حتىّ سمعت أنفاسها، ورأيت دمعة كبيرة تسيل على خدها، وارتمت فى حضنى بشوق لا يحد، صرت الآن بينهما، ثم دفعانى رويدا.. رويدا باتجاه الشواهد، وكتلة البشر المصاحبين لهما مدوا أيديهم نحوى فى استجداء، قاومت قليلاً، ثم نفضت يدى منهم، فسقطوا على الأرض عظاماً مفككة. قلت: لا أريد الآن.. العمر لدى مديد. فناحت الأصوات من حولى حتى غلبها النباح، ها هو الكلب الأسود يخترق الدائرة، سواده هو

الشـىء الوحـيـد فى البـيـاض الذى أغـرقنى، جـذبنى من ذيل سـراويلى ليـخـرجنى مـن الدائرة المحكمـة، ثم لمحت شـبـحـه الداكن يتقـدمنى فسـرت وراءه، وصـلادة الأرض من تحت أقدامـى أكدت لى أنى الآن فوق الأسفلت، وتوارت الأطياف التى حاصرتنى، وتوهج نور مباغت، وسمعت حشرجة «موتور» قديم بالقرب منى، ثم أتانى صوت قطار الصباح مـهللاً، وانتفضت للفرقـعة المدوية حين داست عـجلاته الحديدية كبسولة التنبيه.

بعد فترة وجيزة أضاء نوره كصباح جاء على غير موعد، اتضـحت الرؤية تماماً.

ها أنا أرى «بلوك» السكة الحديد، ومظلة السـيارات، والعـمـارات المرتفعة، وأحيانى صخب الأجراس التى تهيىء لمقدم القطار.

ضـغط السـائق بقـوة على دواسـة البنزين فـزمـجـرت السـيـارة، انغـرست عـجـلاتهـا فى طين القناة، ودارت فى الفـراغ، نزلت لأدفع جسد السيارة من الخلف، فوثبت إلى الأمام، واستراحت فى وقفتها على الأرض الصلبة.

وسرنـا الهوينا، نرقب الطريق من كل جانب نتسمع لصوت الإمام ينهى الصـلاة. بعـد حين لمحنا شـعلة من لهب، انقـشع لهـا الجـدار الشرقى للشبورة فرأينا على وجهها أبراج الحمام والمئذنة وشواشى النخيل. واتضح لأسـمـاعنا نعيـر الجـامـوس، وثغـاء الأغنام وبكاء الأطفال، وتلمست الأنف رائحة الخبز واللبن المختثر.

شاشة بيضاء فارغة

إنه الاثنين، يوم العرض السينمائى فى «ميس الضباط» عندما هبطت الظلمة، ولم يعد غير المصابيح التى تبرق، غادرنا الفرع، وهناك عند باب الميس أوقفنا العربة «الجيب» نزلت أنا وعبد المنعم نحمل آلة والشاشة الطويلة البيضاء، كان عدد من الضباط منتشرين وراء الطاولات، أمامهم أطباق العدس المصفى والجبن الأبيض والحلاوة الطحينية، والأولاد الذين يرتدون السرويل البيضاء والطواقى البيضاء يتحركون بنشاط بين الصفوف، ضيقت عينى حين واجهنى الضوء القوى وظللت فترة طويله حتى وضحت الرؤية.

رفع الضباط رؤوسهم عندما رأونا، وسألوا عبد المنعم عن الفيلم، فقال: ثرثرة فوق النيل. ثم مال على أذنى: علّق الشاشة. فاخترقت الممر الطويل حاملاً الشاشة الملفوفة، وتفاديت ألا تضرب الأطباق أوتخبط أحد الضباط، وقلت فى نفسى: إنهم بالتأكيد سيسعدون بالفكرة.. فهى جديدة، ولم تخطر على بال أحد، والضابط محمد قال لى إنها فكرة عظيمة.

طلبت من أحد السفرجية أن يمسك لى الكرسى لأصعد فوقه

وأمد الشاشة على المسمارين المثبتين فى أعلى الجدار،

وسـألنى عن اسم الفـيلم، قلت وأنا اقـفـز إلى الأرض: كله ضرب، فتهلل وجهه الأبيض واستدار يحادث زملاءه بفرح.

كان عبد المنعم مشغولاً بتركيب الفيلم، قال: حظك.. سيادة اللواء مسافر. فقلت له: حتى فى وجوده.

كان حكى عن اللواء، حين قام ذات ليلة بعد انتهاء العرض، ومر عليه وهو وراء الآلة خالعاً (البيريه) عارى الرأس: فأمسكه من طرف شعره وراح يضربه فى الحائط قائلاً له: لازم تحلق شعرك!

وفى ليلة أخرى كان يعرض فيلماً قديماً فانقطع الشريط أكثر من مرة، فقام اللواء والضباط من خلفه، ولما وصل عبد المنعم قال له ساخطاً: احبس نفسك عشرة أيام. فلم يملك إلا أن يرفع يده بالتحية ليقول: عُلم يا فندم.

وعندما أقبلت على الفرع فرحت بالسينما وطلبت من الضابط محمد أن أقوم بالعرض بدلاً من عبد المنعم، فرفض، ثم إن العقيد أمرنى بالتدريب على العرض فأنا عسكرى مؤهلات يحسن التعامل مع هذه الآلة بدلا من هذا الفلاح الذى يعمل على جرار، وقلت للضابط محمد: إن العقيد طالبنى بذلك فأجابنى: أنت حر.

تزاحم عـدد من الجنود على باب الميس وأطلوا برؤوسـهم

مبتهجين. ونادى واحد منهم على عبد المنعم، وأشار بيده يستفسر عن اسم الفيلم، فنطر عبد المنعم يده وانشغل بتركيب الشريط وجاء السفرجي من أخر الميس ودفعهم إلى الخارج، فسمعنا همهماتهم من خلف الباب، واحد منهم مد بوزه في الثقب سائلاً عبد المنعم عن الفيلم ولأن عبد المنعم لم يجبه، شتمه الجندي: فاكر نفسه باشمهندس.

انتهى الضباط من العشاء فرفعت الأطباق وبقايا الخبز المفتت. ودار السفرجية على الطاولات يمسحون مشمعاتها بخرق قديمة، وأدار الضباط الكراسي وصارت وجوههم تجاه الشاشة البيضاء المفرودة على الجدار البعيد، خلعوا «البيرهات» ووضعوها تحت مرافقهم، صرت لا أرى غير مؤخرات الرؤوس التي يحوم حول بعضها دخان السجائر، ووقف عبد المنعم يفرك كفيه متحفزاً لتلقي الأمر، اقتربت منه وقلت له: أنا خايف. فضحك: قلت لك!

ظهر الرأس الضخم بذقنين مخنوقين بأزرار السترة التي يضيء كتفها صقر وثلاثة نجوم، تنخم من أنفه وأشار بيده: إبدأ يا بني.

هيأت نفسي وشددت ذيل السترة إلى أسفل، ووقفت في وضع انتباه، بلعت ريقي وبدأت الكلام: مساء الخير. فاستحالت الأقفية إليّ وجوه بعيون محدقة وأنوف مشمئزة وشفاه منحرفة

على جنب فى حالة اندهاش، وأكملت: الليلة نبدأ تقليداً جديداً .كل مرة كنا نكتفى بعرض الفيلم أما اليوم فسنحاول تسليط الضوء علي بعض الافلام المهمة لنتعرف عليها ونصبح أكثر إلماماً بظروف إنتاجها ثم نحاول فك ألغازها حتى لا يظل الفيلم مجرد تسلية عابرة. ضاقت تحديقة العيون، والأنوف ازدادت ارتفاعاً وشموخاً وازدادت الشفاه التواءً، وأنا ازددت خوفاً وارتباكاً وصممت على المواصلة، رفعت يدى لأمسح العرق الذى نضح على جبينى، وأكملت: فيلم الليلة مأخوذ عن رواية للكاتب الكبير نجيب محفوظ وفى هذه الرواية حاول الكاتب انتقاد التطبيق الاشتراكى فى فترة....

وفوجئت بالأيادى التى رفعت مرة واحدة لتشير فى ايقاع واحد منضبط تأمرنى بالجلوس، فعدلت «البيريه» على رأسى دون داع وتواريت وراء عبد المنعم ورأيت الرأس الضخم يسأل عبد المنعم عن اسمى فأجابه: عسكرى جديد فى الفرع يا فندم. وسمعت التعليقات المتهكمة: عساكر أخر زمن. وسمعت نداءه:اطفِ النور يا بنى وابدأ العرض. أسرع السفرجى إلى الباب وفتحه فاندفع الجنود إلى الداخل، بعضهم استطاع أن يخطف الكراسى الفارغة والأخرون جلسوا بين أرجلهم محملقين فى الشاشة الصامتة، وهبت نسمة هواء خفيفة من جهة الباب جففت العرق البارد، ولما أطفىء النور وانشغل الجميع بالفيلم

انسحبت دون أن يراني أحد إلى الخارج، تسلقت أكياس الرمل وسرت فوق الأسفلت الأسود الناعم ليقودني بعيداً... بعيدا.
وكمية كبيرة من الهواء الرطب استنشقتها رئتي دفعة واحدة.

رقصة الطير

كنا أمام القاعة، ننتشر على سلم الزحام، والزميل الذى يخطب أحاط فمه بكفيه، انتفخت رقبته، وسال العرق تحت شعر الجبهة، وعيناه كانتا متوترتين خلف النظارة التى تعكس شمساً صغيرة، وأربعة من الزملاء، وقفوا خلفه واضعين أكفهم حول أفواههم يرددون ما يقوله، فيسمع الجميع، من أعلى درجات السلم، أمام الباب الكبير المغلق، حتى البقعة المزدهرة بالورد والحشيش الأخضر عند المدخل.

قال الزميل: علينا أن نمر بالمدرجات لنقنع باقى الزملاء بموقفنا وننتهى إلى عقد مؤتمرنا، داخل القاعة، فهى قاعتنا وليس لأحد حق منعنا من دخولها. وهتف زميل من آخر الحشد رافعاً الجريدة على عينه المواجهة للشمس: لا أشغال شاقة وتأبيده.. الجامعة طالعة.. أكيدة.. أكيدة.

ورددنا وراءه حتى سرت ماء الحياة فى عروق الورد، فاعتدلت أغصانه، وازدهرت أوراقة الحمراء، ونسمة الصبح حملت هتافنا، ووزعته،على النوافذ المفتوحة، فبرزت رؤوس الطلبة، وخرج آخرون ليقفوا على الأبواب تحت ضوء الشمس المنعكس بقوة

على الجدران السميكة.

فجأة.. ومن دون توقع، انفتح الباب الضخم وهجم منه رجال يحملون عصياً غليظة، اندفعوا بسرعة خاطفة من وراء ظهورنا وبدأوا الضرب بعشوائية، فتفرقنا فى كل ناحية، ووقعت بنات على الأرض، والرجال لا يكفون عن تطويح الشوم فى الهواء حتى فرغ لهم المكان تماماً، لاذ بعضنا بالأبواب المفتوحة. وبعضنا بالسور المرتفع، والبعض تحلق وراء أحواض الحديقة، يصرخ في وجه الرجال: بلادى لك حبى وفؤادى.

والسلم الرخام بانت درجاته النظيفة الفارغة، والباب الكبير ظل مفتوحاً على آخره، وأمامه وقفت نادية يدها على وسطها غير حافلة، والرجل الأكرش كان يقترب منها ببطء رافعا عصاه إلى أعلى رأسه مهدداً. وثبت هذا المشهد فترة طويلة، وتعلقت أنفاسنا، ولم نملك غير الترقب، والرجل يدنو.. ويدنو. ونادية صلبة فى وقفتها بالبنطلون الجينز والقميص الأبيض والبلوفر الرمادى المربوط فى عنقها تدلى على ظهرها مع شعرها الأسود الناعم.

- اقترب الرجل ورفع العصا فوق رأسها تماماً، تخشبت يده، ثم ارتخت، وبدأت تنسحب بتخاذل، وفى هذه اللحظة بالذات مدت نادية يدها وأمسكت العصا من طرفها، وبكل قوتها راحت تضرب الرجل على كتفه وهو يتراجع مهزوماً. فصحنا بصوت

واحد: شاطرة..برافو يا نادية. وبدأنا نتقدم، خلعنا البلاط وحولناه إلى طوب صغير وجعلنا نقذف الرجال، وهم ينسحبون بظهورهم إلى الوراء.. إلى الوراء، ونحن نتقدم بتصميم وعزم، كنا نشكل نصف دائرة، والرجال صاروا بين فكى الحلقة التى تضيق وتضيق، ولما تأكدوا أنها ستعصرهم، رموا عصيهم، وفروا، ثم اختفوا فى الظلمة خلف الباب الكبير. رُفعت نادية على الأعناق، وصرنا جسداً واحداً، يندفع فى حركة متوحدة، ويهتف بحنجرة قوية، والجسد المتوحد ضرب بكتفه الباب فانفتح، وتمطى الجسد بعنفوانه إلي الداخل، فانفتحت القاعة، والرجل الذى حاول منعنا رفع فوق الرؤوس، وألقى به إلى الخارج، والباب الكبير ظل مفتوحاً، يمد مستطيل نوره إلى صفوف الكراسى، ويستقبل النسمات العذبة من بين عيدان الورد، لتستقر هناك، عند المنصة، فاهتزت لها الستارة الحمراء الشامخة وتراقصت بين ثناياه طيور كانت راقدة.

وجه معكوس

على ضوء «الأباجورة» كنت على مكتبى مستغرقاً فى قراءة رواية غرائبية، ما بين الفصلين رفعت عينى، فوقعتا على الزجاج المقابل، كانت الصورة المعكوسة تبرز الأشياء التى سقط عليها النور القوى، فى البؤرة، ثم تتلاشى المكونات الأخرى فى الخلفية، تعرفت فيما بين هذه الأشياء على يدى، والخطوط الواضحة لمنامتى، ولكنى لم أر وجهى لأنه فى الظلام، ملت قليلاً لأجعله فى دائرة الضوء، فلم أتعرف عليه، كان وجهاً لشخص آخر، لا أعرفه.

غيرت من سحنتى علَّ الوجه المعكوس يستجيب، ابتسمت، فعبس، عبست، فابتسم، رفعت يدى فارتفعت، أخفضتها، فانخفضت، يدى تطاوعنى، ووجهى يعصانى.

قمت عن المكتب فقامت معى يدى، دنوت من الزجاج فخرج الآخر منه، لم يوجه إلىّ كلمة، تجاهلنى تماماً، والتف حولى، ليستدير إلى المكتب، اتخذ موقعى هناك بصرامة.

رفع الكتاب بين يديه، واستغرقتة القراءة، ووجدتنى أتداخل مع الأشياء المعكوسة على الزجاج، وصرت وجهاً يتأمل -بثبات- الجالس على المكتب.

صوت غير مألوف

رأيناه يأتى من بعيد، شمس المغيب فى وجهه، وظل يتمدد وراءه بطول نخلة، كان يسير تحت أشجار الطريق، فينمحى الظل مؤقتاً، خط السكة الحديد يحدد الأفق الخلفى، ويؤكد نهاية الطريق الذى انحرف إليه.

نحن نعرف أنه قطع مسافة كبيرة حتى استدار، حين عبر ظل الشجرة الأخيرة، اتضح حمله، وبانت يده قابضة على الشيء المكنون فى لفائفه.

هرع الأخ الأصغر جهة البيت، سمعناه يهتف لأمه.

– عاد.. أبى عاد.

لم نترك المكان، تشبثنا به، قلنا: سنلقاه هنا على الطريق. لم نستمع لنصيحة الأخت التى قالت: من الأفضل أن يلقانا فى البيت.

كان أهل القرية قد عادوا من حقولهم من زمن وجيز، انتشر بعضهم على الجسر، وتوزع البعض على المصلات الطينية ليلحقوا بصلاة العصر قبل الغياب النهائى للشمس، بينما النسوة أشعلن نيران الكوانين، فانطلق الدخان من فوهات

الأسطح ليتلاشى فى رمادية السماء.

وكنا من موقعنا نرى وميض النور الكهربائى يضوى فى المدينة البعيدة، هذه المدينة التى نرحل إلى نورها المراوغ، كل مساء نرقبه من بعيد، ويشتعل فى صدورنا الشوق للعودة إليها.

قال الأب: هنا حياتنا أفضل ولا عودة إلى هناك أبدا.

وليل القرية يأتى مبكراً تماماً كصباحها، الآن هو يقف بيننا، قال معاتباً: لماذا تقفون هكذا على الجسر؟ وهمهمنا ونحن نلقى نظرة شرهة إلى حمل يده: كنا بانتظارك. وتجرأ أكبرنا ليسأله: هل ابتعته من سوق المدينة؟ ودفعنا أمامه لندخل إلى الردهة. كانت الأم تقف مهيأة لاستقباله بوجه بشوش.

تقدمت الأخت إلى المنضدة التى جهدت فى إعدادها منذ الصباح، تلمست مفرش الدانتيل وأعادت إحكامه من كل الجوانب وانشغل الأب برفع الشرائط عن الصندوق الورقى، ثم سحبه من الداخل بهيئته المستطيلة وسماعته الأمامية المثقوبة والزر لاختيار الموجات والزر للفتح والغلق، خلع الأب غطاءه الخلفى ليرص البطاريات الجافة فى مجريين بطول الجسم فرأينا أسلاكاً رفيعة الغاية وعدة معقدة ومتداخلة.

اعاد الأب الغطاء إلى مكانه، وضغط عليه حتى سمعنا له «تكة» تحسم استقراره، ثم رفعه بين يديه ليجعله فى مقابلتنا.

ران صمت بل حسبنا أن الكون كله يصيخ مثلنا بانتظار

حركة اليد التى أدارت الزر، فانطلق صوت مَن داخله يردد لحناً جميلا فعدنا بظهورنا لنصنع حلقة، أردنا أن نوسع لينطلق اللحن حرا من دون أن تخنقه كتلتنا المتجمعة.

فى البدء جاء الصغار شبه عرايا، جلبهم الصوت من بيوتهم، لحق بهم غلمان يكبرونهم سناً وبنات صغيرات أطلقن ضفائر شعورهن بحرية، وأعقب الجميع النسوة اللاتى تركن خبزهن وطبيخهن ولم يحفلن بالدخان المنساب من الطاقات من دون قيد، بعدهن الرجال بجلابيبهم المفتوحة عن الصدور، فركوا أياديهم الخشنة لتتناثر من أثر احتكاكها فتائل صغيرة من طين الكد.

وتجمعت بين أوراق الشجرة المنصوبة أمام الباب طيور كانت تغرد فى فضاء الحقول، توقفت عن التغريد واشرأبت بأعناقها نحو الصوت.

سأل الأب: هل ترغبون فى الذهاب إلى المدينة؟ وأجابه صوت من خارج البيت: كيف وقد أتت إليهم المدينة!

الضحى والليل

١- المقبرة:

الرجل يغور في جسد الليل النائم، يدوس الموت، يعتلي المصاطب الطينية، والبوم لما رآه انزعج.. أسقط نظراته متخفيا في أعلى الشجر العجوز.

المارد الحارس كسر ريم المصرف، تمدد في القاع، لاهيا بفرحة الماء - (هل يجروء الإنس على شق رهبة الصمت العظيم؟)

هكذا سأل نفسه وأكد:

من يقترب تلحس لحمه النار المقدسة.. وشهق الماء تحت ضربتة القوية، تناثر على الضفتين.

والرجل يعمق عينه في اللوحه الرخامية و«..يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية». الشاهد رابض، تطلع من جسده الأبيض رأسان لكل رأس طربوش أحمر وزر، وعلى ظهره تمدد الخوص الطرى على الجانبين وبقايا زهر انطفأت جفونه.

«هه.. توكلت على الله» وضربة الفأس أيقظت النائم، فتق

التململ الكفن فانسدل، وفأس الرجل لا تعبأ تنهش الحفرة، تلقى بالتراب والحجارة، مصابيح المدينة -من بعيد- تحملق معلقة الأنفاس وكل الشواهد والشجر، والريح لما عبرت ضربت كتفيه ووشوشت: تنام الهوام هنا والسارقون وحراس الموت..

ضغطت قبضة الخوف قلبه، أنام يد الفأس على جدار المقبرة نظر خلفه، السور تطل منه رؤوس حجرية وجذوع الشجر المنتهى فى السماء.

صوت أنفاس تخرج من رئة مكبوتة بحجم الكون، وخطوات لقدم ثقيلة، وساقية تئن فى البعيد، جلس على كومة التراب، اضطربت الأجنحة لما الثقاب اشتعل، التوى دخان اللفافة فى محاورته الهواء.

كل المقابر تعرفه والطرق المتعرجة، بآياته الكريمة يمنحها البركة، يملأها بالأجساد، ينظف أحواشها، يسميها بأسمائها، يزرع عندها الصبار، ويروى أشجار التمر حنه.

ماتت قبضته على اليد الخشبية، ضرب الأرض وضرب.. ظهرت الأحجار متراصة متماسكة، دفعها بيده. فى أنفه تشبثت الرائحه الثقيلة العفونة.

(فى الصبح.. شق زحام الباكيات، فتح له الباب ودخل، حمل الجسد مع الرجال إلى المغسلة... دعاه ليقضى الحاجة الأخيرة، وبالموس رفع شعر الإبطين والعانة... ومن الإناء دلق الماء.. قلب

الجسد الطيع.. وأزال الرغوة بالكفين.. دعك الوجه الباهت.. جففه.. دس القطن فى الأذنين والإست.. وملائكة السماء تحوم حوله تحثه.

الصريخ عند الباب يتكثف فى الأذن اليسرى.. تتلمس الصرخة الحزينة والصرخة المجاملة.. والرجل يقطع القماش الشاهى الأبيض، يجمع أطرافه على الجسد.يمرر عليه الإبرة والخيط.. يأمر بحمل الماء إلى الخرابة البعيدة.. ويحمل الجسدإلى السرير جهة القبلة.. ينزل أكمامه.. يسوى عمامته، ويسبق المشيعين إلى المقبرة....

كانت الشمس تضج بالسخونة والضوء السخى، هبط الحفرة، سمع الأنفاس السماوية تتردد، كنس المكان وسواه، فرشه بالرمل الرطب، طرد الذباب، وثبت حجراً للرأس المقبلة..)

رفع الحجارة أعلى الحفرة، انثنى ظهره، «بسم الله» أشعل ثقابا.. الجثة راقدة على الرمل مفكوكة الكفن، ترتاح رأسها -جهة القبلة- على حجر، النار لسعت يده، أشعل ثقابا.. السقف يهبط والأرض ترتفع فى تحد، جرجر الجثة جهة العين، مددها بين الجدراين.. عاود رص الحجارة، انهال التراب عليها، جمعه بباطن الفأس، سواه، ضغط عليه بالكفين، دكه برجله.

وجه الجثة جهم يجمع بصقة «لا بأس» لمعت أسنان الفم الذهبية، خلعها الرجل دسها فى جيبه.تذكر السروال الذى تبرز

منه عورته، فك القماش الشاهى الأبيض، طواه مع الجلباب والعمامة، رفع الجسد على البنية النحيلة، جرجره لحظة، ثم عاود رفعه..

انهطلت يدا الجسد على بطنه، واختار أقصر طريق.. ها هو يسير به تحت الشجر المتشابك.. والعيون المحملقة تكثف فى حدقاتها الصورة والمارد لما يزل على الجسر يلهو، هذه الأرض التى يطويها مملكته، هو أوحدها، لو تبدى له المارد جسدا حيا لقتله، والحياة حين تنسحب مخلفة الموت للأجساد يغسلها بمائه الطاهر، ولا دخلْ له فيما يقع خلف جدران المقابر، بعد أن يذكرها بالرب، والنهى.. ويردد الشهادتين، ويكون آخر الكلام.. يدع للملكين الأمر، يضربان الأرض عند الرأس بالحديدة الطويلة بمسافة الأرض والسماء.

٢- الزيارة:

الفقهاء والشحاذون، عمى وعور ومبصرون، لما رأوا موكب الحزن، تمسحوا بالشاهد الرابض تبرز من جسده الأبيض رأسان لكل رأس طربوش وزر، داروا حوله وقرأوا: «قل هو الله أحد.. الله الصمد..» الزوجة البضة فى المقدمة، تخدش الصدر تلطم الوجه، تذكر الميت بالصبية الصغار وتلوم الله.. ومن خلفها

النسوة يحملن السلال عليها أغطية -جوقة صريخ مهدود- المقابر تصطخب بالأسود.. والقلوب التى تآكلت أنبتتها الفرحة بزيارة الأهل، أقعت هياكلها تصيخ تحصى المحب والجاحد.

والنسوة هناك والرجال انتشروا يطعمون الموتى الآيات، ويمنحون المقرئين الفطائر والخبز، يروون أشجار الصبار الذابلة الموحشة، ينثرون الماء على الشواهد وحولها، يقطعون الفروع الخضر، ويوزعونها على المصاطب.. عند الشاهد الرابض اجتمعن، الزوجة تمرغت فى التراب.. نثرته على رأسها، وهن ينهنهن دامعات الأعين، والفقهاء يستعيذون بالله من الشيطان الرجيم يأمرون بالاقلاع، فلا تقلق الموتى فى مضاجعهم الآمنة..

- من الحرير للتراب.. صرخت المرأة الوالهة وتذكرت ليلتها الباردة (ورث العز عن اجداده، بدأبه ارتقى عنان السماء السبع، أضاف إلى الأرض أرضا ولما انفض زمانها، ابتنى العمارات وسير السيارات وسكت قلبه حين اكتشف ضياع بعض ماله).

تهافت الشحاذون على القروش التى نثرت على سطح المقبرة، والشيخ الوقور زجرهم رحمة بالعظام.. السيارة الجيب من خلفها السيارة البيضاء وقفتا على الجسر هناك، الضابط على كتفه تلمع النجوم بينما نامت الأشرطة السوداء على كتف الشاويش، والرجل النحيل عند رسغه الحديد، رأسه فى الأرض... أهذه هى المقبرة؟... هز الرجل النحيل رأسه

-الضـابط- مـوافـقـا لم ينتبه للطمة القـوية على خـده، أشار ذو النجوم للرجال:.. أعيدوا الجثة مكانها..

جاءوا على كتف واحد منهم فأس، عند الفتحة ضـربوا بها الأرض، والنسـوة تجـمـعن على الضـابط. انزوى بالزوجـة فى الركن، انهدت على الأرض، أطفأت الغيبوبة عيونها.. أسرعن حـولهـا، بللن وجـهـهـا بالماء، بينمـا قـدم الرجـال يحـملون اللفـة البيضـاء المتهادلة، تحلقن حولها جوقة عويل، تجمع كل سواد المقابر وتكثف حول الشاهد الأبيض.. أهيل التراب.. عفر المكان الدهشه والسؤال على الوجوه المعصبة، وذو النـجوم لا يجيب.. ذهب ورجـاله إلى السـيـارة التى نفـخت الدخـان والغـبـار.. واختفت..

أسد السيرك

رأيته يقف على بابه يضع على رأسه طربوشاً ورقياً أسود له خطان من الأمام، أحدهما أزرق والآخر أحمر، ويمتد تحت أنفه شارب مبروم إلى أعلى، وكان قميصه فى سراويل، وأطراف السراويل داخل الجورب، وكان يمسك بيده عصا طويلة، ربط برأسها الخيط، وجعل منها سوطاً.

اقتربت منه وأنا أتحسس طرطورى الذى سقطت شراشيبه على عينى، وقفت أتأمله وهو يركن بكتفه على جانب الباب، ويضرب السوط فى الهواء، فتفرقع أطرافه.

قال لى: تلعب معى لعبة السيرك.

قلت: أخى أدخلنى السيرك ليلة الأمس وكان به أسد كبير.

قال: أنا عندى الأسد.

قلت له: أنت تسخر منى.

قال: فى الخرابة التى بآخر الشارع كلبة ولدت عددا من الجراء.

سألته: ما لنا والجراء؟

أجابنى: نستطيع أن نجعل من أحدها أسدا.

فى الشارع الخلفى الذى تقع فيه دورنا كانت الأبواب مغلقة والشمس تملأ المكان، والظل لم يزل معلقاً على الجدران، أما الشارع الكبير فكان يموج بأهل القرى العائدين من المولد. كانوا يمشون خلف الحمير التى ترفع الأولاد والبنات الذين يرتدون الطراطير وينفخون فى المزامير.

قال: ها هى الكلبة فى الركن البعيد.

قلت: اقذفها بحجر.

كانت كلبة سوداء لها أثداء عامرة، تتدلى بثقلها إلى الأرض، انسحبت دون مقاومة، وألقت علينا نظرة عاتبة، كأنما تقول: ها قد تركت لكما المكان فلا تؤذيا جرائى.

سألنى: أيهما تختار؟

قلت: هذا .. فهو بلون الأسد.

وأشرت إلى الجرو ذى اللون البنى الفاتح، فانحنى إليه ورفعه من تحت بطنه، بدأيعوى عواء مسرسعاً، لا يضر ولا ينفع، وعدنا نحو دورنا، حيث أحضر قفص الجريد. وقال: هذا هو بيت الأسد

أحضرت قطع القماش القديمة. وقلت: هذه هى خيمة السيرك.

وبدأنا نغرز العصى والجريد فى ثقوب الحائط، ونمدد عليها قطع القماش فتكون السقف، وأسدلنا بعضها لتكون سورا يمنع

العين التى يعجز صاحبها عن فهم الوضع.

وسألته: من منا سيكون المروض لهذا الأسد؟

قال: ها أنت ترانى بهيئة المروض، ولا ينقصنى شيء.

قلت: وأنا أقدم الغناء، وأعمل الحركات التي تضحك الأولاد.

قال: أنت لا تستطيع أن تقول «المهرج».

قلت: ولكن هذا الذى تقول عنه كان له وجه أبيض وله رموش طويلة وشفاه حمراء غليظة.

قال: تعال.

أدخلنى الحجرة بآخر الدار حيث نثر الدقيق على وجهى ثم مرر القلم الأسود القصير حول عينى، ومرر القلم الأحمر الدهنى على شفتى، وأحضر مرآة صغيرة، وقال: انظر. فكنت على هيئة «المهرج» وضحكت من نفسى، وقطعت صالة الدار، وأنا أتقافز، وأثب، وأرمى جسمى بطوله على ذراعى، حيث أسير عليها متشقلباً، ثم أعود فأرمى ساقى على الجدار، وأهبط بهما رويدا رويدا حتى ألامس الأرض مرة أخرى.

وهو وقف أمام الخيمة واضعاً فمه فى علبة سجائر فارغة يصيح بأعلى صوته: تعال.تعال.. بص بعينك وارحم بقلبك.. الليلة إكراماً لصاحب المولد نقدم لأول مرة الأسد الجبار يقفز وسط النار، وينكمش أمامى كالفار، فسبحان الواحد القهار.

لما التم الأولاد والبنات سألوا: بكم تذكرة الخول؟ قلنا

لهم:الكراسى الأمامية بغطيان الكازوزة والكراسى الخلفية بنوى البلح.

فتفرقوا فى الشوارع يبحثون عن أجر الدخول، ينكشون فى التراب، ويقلبون فى الكيمان، ثم عادوا مرة أخرى فوزعناهم تحت الخيمة، وتركنا فى الوسط مساحة فارغة، ثم أسدلنا قماشة الباب، انتظرت أنا بالخارج وهو دخل القفص، أطلق الجرو الذى لم يكف عن العواء، وراح يفرقع بالسوط، فانقلب عواؤه عويلا يقطع القلب، والمشاهدون صفقوا وهللوا، والجرو ازداد رعبا وانكمش تحت قدم المروض، قافزا، فلم يفعل، فألقى القفص عليه، وجعل الجرو يدور فى حبسه، وقبع أمامه، يدفس له العصا من بين القضبان والجرو يصرخ، والأولاد يهللون، وكنت قد رفعت فرجة بين قماشتين أراقب اللعبة، وأنتظر دورى بفارغ الصبر.

ورأيت الكلبة السوداء مقبلة نحو السيرك بحذر، زامت فى وجهى، وكشرت عن أنياب بيضاء حادة، فرجعت بظهرى، أستغيث بالأولاد، ولكنهم كانوا زائطين بالداخل، يصفقون بأكفهم على ايقاع موحد مع العواء الحاد.

ورفعت الكلبة السوداء القماشة ببوزها، ودخلت السيرك. وسمعت صراخ الأولاد وهم يقومون عن أماكنهم بفزع، فرفعوا برؤوسهم السقف، وبانت الكلبة، وهى ترفع بشدقيها قفص

الجريد لتلقيه جانباً، ثم تقبض بفكيها على الجرو، ولا تنظر إلى أحد منا، والمروض اقترب منها بسوطه، غير أنها لم تهتم به، ولا بفرقعاته، ظلت قابضة على وليدها، عائدة به إلى جحرها، تجر جسمها الثقيل ذا الأثداء المترعة التى تصل حوافها إلى الأرض، وقفنا جميعاً نرقبها من خلف حتى لم نعد نسمع العواء المستغيث، وعدت أغرس العصى فى الجدران، وأضبط الأقمشة عليها.

قلت للولد: لم أقدم نمرتى بعد.

قال: نسميه «تياترو» لأنه لا يكون السيرك إلا بوجود الأسد.

وصاح الأولاد والبنات:نجعله «تياترو».

ووقفت فى الحلقة الفارغة مهيئا لتقديم ألعابى.

القتال على السطح

رغم أن القطار كان في أقصى سرعته، والخيال الملقى في الخارج يدل على أن عراكاً فوق سطح العربة، ظل النوم والجمود على الوجوه التي فقدت ملامحها.

«انظروا .. انظروا» صرخ في الأجساد البليدة الراقدة فوق الكراسي لكن بئر النوم سحيقة.. مر المحصل ومدت إليه الأيادي بالتذاكر في خمول بارك السكون غير العادي، رآه في جلسته جوار النافذة، فاجأته العينان اليقظتان -الحركة الوحيدة بين الركاب- قال: انظر.. عراك فوق السطح. قال:ما لنا نحن؟ قال: أرجوك اصعد إليهم. واصل سيره وسط أكياس الرمل النائمة، التفت إليه: كن في نفسك.

(الأشجار تفر.. وأعمدة الهاتف تفر.. وكذلك الزروع والمدن البعيدة) والخيال فوق الأرض يلاحق القطار، رجلان أحدهما شبك كلتا يديه وراح يضرب فوق رأس الآخر، ولكنه لم يسقط بل يضرب في كل جزء من الجسد الكبير «كفى.. وليغفر لكما الله» تداخل الهتاف في صوت الموتور الممزوج بضربات العجلات، كان نصف جسده بالخارج حين هتف ثانية وثالثة، أدخل رأسه،

راعه السكون المميت وتكاثر الذباب حول الأفواه والعيون، وقف على كرسيه، صرخ فيهم، لم يتحرك غير الذباب الذى ذعر للحظة ثم عاد إلى مكانه حول الأفواه والعيون، بين صفى الكراسى، وقف، هز الأجساد.. هزها بعنف، صاح: القتال فوق السطح. انتبه على عين المحصل تحملق فيه بسخط عند نهاية العربة، اقترب منه قال: قلت لك كن فى نفسك.. أنت تريد ازعاج الركاب، وليس هذا من حقك دعهم يستريحون. قال: تأكد أنت بنفسك.. هناك فوق السطح رجلان يقتتلان.

ربت على كتفه: ها أنت بنفسك تقول إنهما فوق السطح، إذن هما بعيدان عنا.

وقف جامداً فى مكانه بينما كان المحصل يغلق الباب عابراً إلى العربة التالية وفكر: قد ينهى على الرجل ثم يهبط علينا.

(الأشجار تفر.. وأعمدة الهاتف تفر.. كذلك الزروع والمدن البعيدة) والخيال ملقى على الأرض يعلو ويهبط معها، الرجل النحيف على ركبتيه يقاوم، والآخر يضرب بكل أطرافه فى كل مكان، القتال بلغ حداً لا يستهان به (ماذا!! إن الرجل الضخم يخرج شيئا من صدره.. يا إلهى إنها مطواة.. أنقذهم يا من ترعاهم بعنايتك.. إنك المطلع عليهم بوضوح.. إنك وحدك الذى تعرف الحقيقة) (امسك نفسك يا رجل.. ضبط النفس واجب) ضاع الصوت بين قعقعة العجلات وضجة الموتور، قفز من مكانه،

زكمت أنفه رائحة الأجساد الكريهة، هزها بعنف (أفيقوا.. من أول محطة وأنتم نائمون) فى منتصف العربة وقف، جري فى كل جهة، صاحِ بكلِ قوته وبأعلى صوت (سيأتى الدور عليكم.. الرجل الوحش شره) مرة أخرى هز الأبدان الثقيلة.. مرة أخرى أطلقت عينا المحصل نارها نحوه، ضغط بأصابعه على صدره، قذفه إلى جدار العربة «ماذا تريد منهم؟؟ هه..قل إنك تريد أن تثير الشغب، إذن أرنى تذكرتك» كان يبحث عنهافى جيوبه بينما العيون المنفوخة قد فتحت على نظرات كسلى لا معنى لها، زجاجات تنعكس عليها الأشياء دون أن تنفعل، والذباب ما زال على الأفواه التى تطلق الرائحة الكريهة، لم يعثر على شيء.. قال: كانت معى.. وقد اطلعت عليها.. كيف اختفت؟ رد: اذن فقد أضعتها.. إياك وإثارة الركاب وإلا أنزلتك المحطة القادمة.

عاد بظهره بعد أن أغلق الباب فى وجهه، وحين رأى العيون مفتوحة فى بلاهة راوده الأمل، أشار اليها: إن أخوين لكم يقتتلان فو.. لم يتم فقد انسدت الأجفان الثقيلة.

الصرخة لم يكن ألمها مما يؤثر فى المشاعر بل من هذا النوع الذى يوجع العظام ويفتتها..«آ.. آ.ه..» جائت حادة مؤلمة وكان ظل يسقط وآخر فوقه يغرس المطواة حيث يشاء.

(والأشجار تفر.. وأعمدة الهاتف تفر.. كذلك الزروع والمدن البعيدة) والقطار فى سرعته لا يحفل بشىء، ألقى نظرة

بالداخل، أراد أن يصرخ، تذكر المحصل، صمت، الوجوه ممسوحة باهتة والذباب احتشد فى المكان والرائحة التى فاحت كانت كثيفة تعلق بالأنف ولا قدرة على الخلاص منها، والثعبان الجهنمى يهبط من السطح ببطء وتثاقل، الثعبان بلونه الأحمر يتكاثر بسرعة.. ينتشر، ذعر.. إنه الدم. هتف بخوف: انتبهوا الدم قادم، لم ينتبه أحد.

ومرة أخرى وقف فى منتصف العربة غير عابىء (والآن لا مفر.. لقد جاءكم الدم) صاح بطريقة أكثر عنفاً..

ارتفعت الأجفان عن أحداق محتقنة.. نظرت دون جدوى، كأنها لم تر شيئاً، لم يلمح أى تعبير جديد، المحصل أمسك بخناقه..احتجزه.قال: أنت تثير الغبار على رأسك.. أجابه بتحد: ها هو الدم.. ألا تراه؟؟

الثعبان الجهنمى يسعى بثقله فى كل الأنحاء، على الجدران، وفوق الكراسى حتى غطى كل الوجوه.

(والشجر فى الخارج يتتابع.. وأعمدة الهاتف والزروع والمدن البعيدة).

قدم شرطيان ووقفا فى صلابة قال: أنتم لا ترونه؟.

نظرا حيث أشار، بدا كأنما لم تقع أعينهما على شىء يلفت الانتباه.. لكن الدم الحار المتماسك تسرب حتى التف بالأقدام.

أفلت من يدى المحصل صائحا بصوت مشروخ: إنى صاعد..

أحاط به الشرطيان وقيداه.

وضجة الموتور ممتزجة بضربات العجلات (الصوت الوحيد) والخيالان المتصارعان منعكسان على الأرض يعلوان ويهبطان معهما، والركود بالداخل والدم الذى ارتفع فوق الكرسى، والذباب المجتمع على الوجوه، والعيون المخدرة ظلت مفتوحة على الدهش.

أمسية الهواء المحبوس

عبرنا صف الدكاكين المغلقة ودسنا شريط النور الممتد من باب الصيدلية المفتوحة، وكان الشارع المسفلت صامتاً وقطيع من الماعز كان منتشراً فى الخرابة ما بين الصيدلية والعمارة المرتفعة.

توقفنا عند السيارة المجهزة بغرفة نوم حديثة. كانت تقف بجوار سور الڤيلا وكان فرع الشجرة المزروعة بالداخل ينام على ظهرها. نظرنا بتردد عبر فتحات السور ورأينا النور الخافت محبوساً فى الزجاج السميك للباب الحديد. قال عوف: يمكن نام. قال أحمد: نحاول.

ووجدنا الباب العريض للسور مفتوحاً على آخره، وكانت الضلفتان مستندتين بحجرين. وعشة العزيزى بالداخل تلعلع بها النار، وهو بالقرب منها واضعاً يده فوقها ويقلب الجذوات، خبط عوف جنب الباب فخرج العزيزى من وهج النار إلى الظلمة: من؟

قلنا له: مساء الخير. فبحلق فينا بعينه السليمة وعينه الميتة كانت تنتفض تحت الجفن.. سأل أحمد: الاستاذ موجود؟

قال: خير!!

- طلب بسيط.

رد العزيزى باب غرفته وتسلق السلالم الصاعدة إلى الفراندة وسمعنا عصافير الجرس تغرد. سألت: ماذا نقول له؟

قال عوف: اترك لى الكلام.

وأطل العزيزى يبحث بعينه الوحيدة عن مكاننا ونادى علينا من وراء الأصص المصفوفة على السور المنخفض: تفضلوا.

سرنا فى صف نحو السلم وتقدمنا عوف حيث تجمعنا فى الفراندة مرتبكين، وكان الباب الزجاجى الشامخ مفتوحاً بضلفة واحدة ورأينا النجفة الكبيرة تبرق وسط الصالة كراقصة، نورها المهتز يسقط على الكراسى التى وقف على قماشها الشاب بالشعر الطويل يضرب على أوتار جيتار لبنت جميلة تضم إلى صدرها الكلب الأبيض، والخضرة انتشرت حولها تلالاً ممتزجة بزرقة سماء قريبة. عاد العزيزى بكرسيين تركهما لنا ثم دخل مرة أخرى إلى الصالة بعد أن رد الباب فلم يتبق منه سوى فرجة ضيقة وشريط نور رفيع يقسم الفراندة نصفين، لم نقعد على الكرسيين حتى عاد بآخرين وكان الأستاذ قد ظهر بالداخل مشعاً بالروب الديشامبر تحت نور النجفة.

- أهلاً..

ومد لنا يده فسلمنا ثم التفت إلينا: خير!!

-خير إن شاء الله.

حين اعتدلت فى جلستى رأيت من فرجة الباب صورة أبيه بطربوشه وشاربه المفتول والوردة البيضاء على صدره، نفس الصورة التى أحضرها أبى معه. كنت آخذها منه وأخرج بها إلى الشارع فأجد الأولاد يمتلكون صوراً مشابهة وكنا نفك الحروف المكتوبة أسفلها «رمز الجمل».. «الرجل المؤمن الشريف».. وكنا نراه ماشياً فى الموكب بين رجال يهتفون باسمه. وحين مر على دارنا تركت أمى يدى وشقت الموكب لتقبله وأبى قال عنه: هو الرجل الصالح.

ابنه يجلس أمامنا بشعره الخفيف وصلعته التى أكلت نصف رأسه كأنه شباب الصورة المعلقة، وهو لا يعرفنا ونحن نعرفه. تعلم في مدارس العاصمة. أنهى الجامعة وسافر إلى الخارج ثم عاد ليعيش فى البلد -بعد وفاة أبيه- وها هو يترك تجارة الأنتيكا التى ورثها عن أبيه ليتاجر فى السيارات. سلك عوف زوره وفرك أصابعه وانحنى كثيراً إلى الأمام وبدأ يتكلم بهمس: احنا طلبة فى الجامعة.

- عال.. عال.

- مغرمون بالشعر والأدب.

- براڤو.. تكتبون شعر الغزل أم الشعر الوطنى؟

- نكتب عن الفلاحين الغلابة.

- براڤو.. الفلاحين بحاجة لمن ينصفهم.

ثم حذرنا أن نكون من أصحاب الاتجاهات المتطرفة لأن أخاه الضابط نبه إلى وجود متطرفين بالبلد وأعرب عن دهشته لظهور مثل هؤلاء الناس فى بلدتنا الآمنة.

– هنا؟

– أنا أعرفهم.

وأشار بيده أمامه وذكر أنهم هؤلاء الطلبة الذين يسهرون على مقهى «النهر».

– نحن لا نقعد على مقهى «النهر».

سمعنا الطرقات الخفيفة على زجاج البيت المضىء فقام الأستاذ ليحضر الصينية التى برزت من الفتحة بين الضلفتين ونظر كل منا إلى الآخر وفى عينيه تساؤل هل نواصل الجلسة؟ أم ننتهز الفرصة لنبتعد عن هذا الرجل؟ وأنا حافظت على صمتى ولم أتحدث معه حتى اللحظة؟ عاد إلى كرسيه مشيراً إلى الصينية: الشاى.

فرفع كل واحد منا كوباً، رشف أحمد بصوت عال وكذا فعل عوف، أما أنا فقد حسوت بدون صوت. رمقنى الرجل من جانب عينه.

– لم أتعرف على حضراتكم كفاية.

فتحدث كل واحد عن نفسه بإسهاب وقدمت نفسى باقتضاب وبطريقة فيها اهمال أزعم أنه استفزه.

وضع كفه على فخذى وسأل: ما رأيكم فى الانتخابات الأخيرة؟

- كانت فرصة لمعرفة قوة البلد الحقيقية.

- صحيح.

كانت هذه الانتخابات بداية ظهوره وحققت له شهرة طيبة فقداستحوذ على قلوب الناس بعد أن أعلن انحيازه لمرشح البلد، فلما سقط فى هذه الانتخابات وقعت المفاجأة واستشعر الناس الغدر وتأكدوا من التدخل لصالح المرشح المنافس وهو من بلدة أخرى معروف بعلاقته بكبار القوم. انتفض قلب البلد. خرج الرجال عقب صلاة الجمعة وجهتهم المركز. وقف أحدهم خطيباً فى الجمع وحدث الاشتباك فتحطمت النوافذ وأحرق الكثير من الأوراق المهمة واشتعلت النيران فى الكشك القائم لحارس البوابة، ثم توجهوا إلى المقر القديم للاتحاد الاشتراكى المعلق على شرفته لافتة الحزب الجديد والسنترال وشبكة الكهرباء ومنزل رئيس مجلس المدينة وأشعلوا النار فى دور المؤيدين للمرشح الغريب. وظهر الأستاذ مرفوعا على الأكتاف يهتف بيسقط ويعيش.

وقالوا: إنه ابن حقيقى لهذا البلد.

وصار اسمه يتردد فى جلسات المصاطب وعلى المقاهى وبين الحقول. لقد صار الرجل المنتظر. فى هذه الجلسة أراد إثارة الموضوع للتأكد من مكانته فى قلوب الناس.

فسـألته سـؤالاً مباغتـاً: اظن سيـادتك ستـرشح فى الدورة المقبلة؟

فاجأه السؤال فعاد بظهره إلى الخلف.

- أعوذ بالله.

وتدخل عوف قائلاً: وهل ستجد البلد خيرا منكم؟

- أنا رجل فى حالى.

رشف من كـوبه الموضـوع على سـور الفـراندة، وسـرح بفكره بعيداً بينما جلسنا ثلاثتنا فى صمت ثم عاد من سرحانه ليقول: بلدنا تغير كثيراً.

لم نعلق على هذا الاستنتاج فأراد تفصيل ذلك..

- يعنى مثلا فرق كبير بين البلد الذى عرفته قبل سفرى وهذا الذى نعيش فيه الآن.

- لا شىء يبقى على حاله.

مرة أخرى سقط فى الصمت، ثم عاود رشف الشاى فلكزت عوف بكوعى ففرك يده ونكت البلغم من حلقـه فالتفت الأسـتاذ إليه..

-لماذا طلبتم مقابلتى؟

- لنا ميول فنية وأعتقد أننا نستطيع أن نفيد بها الشباب من جيلنا فاستخدمنا ساحة النادى لنؤسس جماعة تقوم بنشاط فى هذا الاتجاه وقررنا إقامة أمسية شعرية نجمع لها التبرعات وقد وافـقت ادارة النـادى مـشكورة على اسـتـضـافـتنا على أرضـهـا

وتكفل مجلس المدينة بمدنا بالكراسى وقلنا فليشارك معنا القادرون من أبناء البلد، لأننا سنقدم المشروبات والحلوى لنغرى الناس بالحضور، كما أننا محتاجون لتكاليف الإضاءة والميكروفون وطبع الدعوات.

- جميل.. وكم جمعتم؟
- لا شيء. قلنا نبدأ بسيادتك.
- وهل حددتم المبلغ؟
- أبدا.. كل حسب جوده.
- وكم دفع الآخرون؟

فتدخلت أنا لاقول: قلنا لسيادتك لم نذهب لأحد بعد.

فخبطنى بود على ساقى: صحيح.. نسيت.

ودلق الشاى المتبقى على لحاء الشجرة المنتصبة أمامنا وترقبنا عودته بقلق، ثم وقف فجأة ليعقد حزام الروب الساقط على جنبيه..

- أنا مستعد لكن بعد أن تجمعوا تبرعات الآخرين.

ومد يده إلينا فسلمنا وكانت حرارة يده قد انطفأت فهززنا يداً ميته، وصاح على العزيزى فخرج من حجرته متعثراً بالحشائش المتناثرة أسفل السلالم وبعينه الوحيدة بحث عن الدرجات فتسلقها دفعة واحدة، جمع الأكواب فى الصينية، ورأيناه.. من فتحات السور وهو يجمع الكراسى بينما كنا فى الخارج نتخبط، ولم نكن قد انتبهنا لطريقنا بعد.

قبة بيضاء بين الشجر

مقامها هناك بالقرب من شاطيء النهر، تظهر قبته المدهونة بالجير -من بعيد- بيضاء تحوطها ذؤابات النخيل وأطراف الشجر، لقبتها هلال تحوم حوله عصافير وحمام ترك أبراجه ليلقط الحب الساقط بين الزرع.

من جوف القبة تتدلى نجفة مشدودة إلى سلك طويل يمتد حتى سقف المقام المبنى بالخشب، على جانب منه صندوق له قفل من حديد وثقب تسقط منه النذور، يتقاسمها -كل عام- أهلها المقربون، عائلة كبيرة على رأسها مأذون البلد، يعقد الزيجات، ويؤم الناس الصلوات الخمس، وهو قصير، يرتدى الجبة على جلباب إفرنجى أبيض، عمامته شال شفاف يلتف حول طاقية من قماش الجلباب، له ولد قصير، تعلم فى المدارس حتى صار معلماً، يقرأ على الأولاد قصائد الشعر ويشرحها. فى يوم الجمعة يقف على المنبر يذكر أهل البلد بقواعد الإسلام الخمس، ويلومهم على ترك الصلاة.

فى كل ليلة يراه الناس فى الغرزة، يدخن الجوزة، ويعظ من حوله، يؤكد لهم أن الخمر من الكبائر بينما الحشيش لم يأت له

ذكر فى الكتاب.. وهو فى حساب الشرع مكروه.

للمقام نافذة بحرية، فى الصيف تهب ريح تستطيبه النسوة الزائرات، والنسوة يغادرن دورهن بعد آذان العصر، منهن من يفضلن زيارة القبور، يترحمن على أمواتهن، ويكترين لهم الفقهاء، يقرأن من الكتاب قصار السور، أو يسرن على الترعة تحت ظل الشجر السامق، ومن هناك ينعطفن إلى المقام، تغريهن الظلة والنسيم الطيب الذى يتردد فى المكان، يقرأن الفاتحة لصاحبة المقام، ويدعونها أن تفك عقدة اللسان عند السؤال، ثم يتذكرن النذر القديم، فيوقدن الشموع حول المقام، أو على أرض النافذة، ثم يلقين قروشهن على الشاهد المكسو بالحرير الأخضر، والمعقود رأسه بمنديل أبيض، يتدلى منه الترتر الذى يلمع فى الضوء.

وللمقام باب مفتوح على صحن المسجد المفروش بالسجاجيد، النسوة يرمقن الباب بجانب العين ولا يجرؤن على الدخول، وهن حين يرغبن الصلاة، يؤدينها هناك حول المقام.. أيام المولد يقدرن أن يدخلن الصحن الفسيح، والغريبات منهن يقضين فيه سواد الليل. بداخل الصحن باب يؤدى إلى الميضة، وصف طويل من المراحيض.. هناك تشم رائحة الكربون مختلطة بالرائحة الكريهة، ومن هناك تتردد أصوات الرجال يتنخمون ويبصقون، تختلط بصوت الصنبور يدفع الماء فى قناة قدت بين الحجر

والأسمنت، تحمل ماء الوضوء، وتجرى بها حيث تصب فى مجرى المراجيض، فيمتزج البصاق بالفضلات بماء الاستنجاء، ليخرج من فتحة ضيقة، تصب فى الترعة المجاورة، يتشابك عليها فروع شجر شعر البنت بالسنط، والسنطة الكبيرة جذع مائل يعبره الأولاد إلى الضفة الأخرى حيث يصلون إلى النهر الكبير، فيخلعون الهدوم، ويلقون أجسادهم فى الماء، منهم من يصعد أعلى سور الكبرى، يرمى جسده الذى يلف فى الهواء فى عمق النهر محدثاً الارتطام المهول، يغطس ولا يبدو على السطح إلا على مسافة بعيدة، بالقرب منهم تنتشر النسوة على الحجارة الكبيرة البيضاء، ينظفن المواعين أو يغسلن ملابس الرجال.. تمتلئ عيونهن بعورات الأولاد النابتة بدكنة بين الفخذين، كذلك تتلصص عيون الأولاد على لحم أفخاذهن الناصع، فيسبحون على الظهر فوق الماء، ويلعبون (شمعة البحر) فلا تظهر غير ذكورهم مخترقة السطح بصلابة، مما يثير حمية الرجال الذين يغسلون حميرهم وخيلهم، فيقذفونهم بالحجارة أو يخطفون منهم الجلاليب، ليعودوا إلى دورهم يشكون قلة الحياء.

صاحبة المولد:

فى أيام المولد.. يتكدس حول المقام المشعونون والمجنونون ورجال الطرق الصوفية، يقيمون -بعد صلاة العشاء- طبقة

الذكر، يقف الرجل الذى ينشد، بيده مسبحة وعصا معقوفة، يبدأ بطيئاً بطيئاً ليتصاعد فى ذكر الأولياء الصالحين وأهل البيت والنبى المصطفى، حوله الرجال يطوحون أجسادهم وأذرعتهم فى الهواء، ويشهقون على وقع الرق، بينما النسوة -والصغار على الحجر يمصون الثدى -يتناثرن على أكوام التراب يتابعن النشيد الذى يسحب الروح، ويحلق بهن فى السموات العالية، منهن من تفيض عينها بالدمع، ومن يهتز بدنها على الإيقاع، فيترجرج تحت القدود لحم مكتنز، بين الجميع يمر الرجل بمبخرة يطلق بخورها العطر، من حين لآخر يهتف «حى» «قيوم». نفس الرجل الذى شوهد فى شوارع البلد بيده جريدة مربوط بطرفها ورقة تخبر عن الليلة الكبيرة، يدور بين حلقة من الصبية الذين عذبهم الشوق للمولد، أعدت أمهاتهم الجلباب، وهاهم يترددون على الخياط يستعجلون الجلباب الذى لم ينته.. يقضون الوقت الطويل محملقين فى الماكينات التى تخيط قطع القماش الجديد، ما إن تنتهى أيام المولد السبع حتى يلطخه الوسخ، فقد تهافتوا على المهلبية والبوظة.. وهاهم يتمرغون بها على أكوام التراب، يطالعون الشيخ المنشد، بعد حين سيقيمون حلقة يقف وسطها ولد يرفع عقيرته بكلام المنشد.

على الجانب الآخر، خلف حائط الجامع، انغرست أوتاد فى الأرض وامتدت منها أحبال مشدودة، تحتها يقبع الرجال

يدخنون المعسل ويشربون الشاى، وبعمق الخيمة، قرب الوابور الذى يوش، يجلس رجل يقطع الحشيش بأسنانه قطعاً صغيرة، ليوزعها على الحجارة، وولد مقرفص سريع الحركة يهرش رأسه، ويدفع المصفاة بالنار فى الهواء، فتتقد حتى يخرج منها لهب.

بجوار الخيمة نام الغرباء الذين قدموا من البلاد البعيدة، والبلاد البعيدة ترسل ناسها فى حب الله، أوليبيعوا طراطير الورق المدلاة من قفص الجريد.

يشترى الأولاد لبدة الخفير وشارب الخفير، وتشترى البنات طراطير طويلة، تنتهى بشراشيب ملونة، يذهبون بها إلى دورهم، ويحتفظون بها حتى تبلى، كذلك يقضون العام ينغمون على مزامير الغاب التى يبيعها الغرباء الذين نصبوا خيامهم على الطريق ما بين الجامع وتجار الفسيخ.

وتجار الفسيخ أوقدوا كلوبات تفرش بقع الضوء على الأرض مساحات واسعة، بينما شمروا أكمامهم وبانت زنودهم ضامرة معروقة، تمتد فى البراميل، تخرج الفسيخ المدفون فى الملح، تفوح منه رائحة الزفارة لما يرصه الرجل على كفة الميزان. يمر الرجال من الطريق، وحين يقتربون يسدون أنوفهم بأصابع اليد، ويلقون النظرات بأطراف العيون، والفلاحون قد أمالوا الطواقى فى مؤخرة الرأس، تحت إبطهم ترقد العصى الطويلة، وبأيديهم رفعوا طرف الجلباب، فتبدو السراويل بيضاء نظيفة عليها آثار

الزهرة.. يعبرون الطريق متعالين على الغرباء.

في دورهم حيث يسمرون يتحدثون عن البنت التى عثروا عليها بين أعواد الذرة في حضن ولد يلعق شفتيها، والبنت التى جعلت من سروالها وسادة لشاب غريب دارت عليه عصيهم حتى نزف دمه.

يعبرون وهم يضحكون في لهو.. إلى «تياترو سعودى» فالغازية بلحمها الرجراج هناك، على الخشبة العالية، تلقى أفخاذها في الهواء لتظهر سروالها الأحمر الذى يتحدثون عنه، بالداخل يفترشون القش، ولا يرفعون عيونهم عن الخشبة التى سينبلج من ظلمتها النور الباهر.

وها هو الخواجة بقبعته السوداء وحلته الأفرنجية الغامقة، يلقى عصاه فى الهواء، فتنقلب إلى مناديل ملونة، يخرج الحمامة البيضاء من صندوق فارغ ويدلق الماء من كوب ليس به ماء.

يا لك من شيطان بارع أيها الخواجة! كيف أرقدت الطيور على رؤوسهم وسحبت العقول بحيلك؟

وماذا في جرابك أيضا؟ هم لا يصدقونك حين تمدد البنت الجميلة العارية –إلا من سراويل البحر– في الصندوق لتقطعها نصفين، ولكنهم كالأطفال يفزعون للصرخة التى أطلقتها البنت التى تدلى رأسها من جانب وقدمها من الجانب الآخر.. وها أنت تسدل ستارك، وما عليهم إلا أن يجمعوا شتات النفس الموزعة

لينطلقوا إلى فرجة جديدة، فهناك على أطراف الزحام، السيرك الكبير، سيرون الأسد ملك الحيوان تروضه امرأة سمينة، تدخل معه قفص الحديد، تضربه بالسوط، بينما هو يزأر كقط عجوز.. يعبر الطوق المحاط بكتل النار، ويقفز من مقعدإلى مقعد..هذه هى أعجوبة الأعاجيب!!

فى الطريق إلى السيرك قد يميلون إلى بائعة البوظة، يشربون الأكواز المترعة بالسائل اللذيذ، يمسحون الأشداق بأطراف الأكمام، ويطالعون الإلية المكتنزة للبنت صاحبة البوظة.. عقدت المنديل المزين بالورد على رأسها، ورمت الضفيرتين على ظهرها، وبعينها كحل يجرح القلوب، ويغرى بالشرب حتى السقوط، جميلة لا حظ لها، مات جدها من عامين، وأبوها قتله الأفيون وسهر الليالى، تركا لها البراميل وعربة بحمار، تدور بها الأسواق والموالد، تسقى الناس البوظة التى أجادت صنعها، لما جاءها الغريب يترنح وفى جوفه يترجرج العصير الحامض، داعبها وقرصها فغضب من فعلته الجدعان من أهل البلد. فى آخر الليل تمد الخيش على هياكل الخشب، وتفرد الغطاء على بدنها، وتجعل من ذراعها وسادة للرأس المجهد.. فالناس قد عادوا إلى دورهم، والرجال القادمون من العزب القريبة ركبوا المطايا، وفى الخرج لعب وحلوى للصغار، يسيرون متنبهين للخطافين ولصوص الطريق المستخفين فى

حقول الذرة.

والكلوب الذى يضىء واجهة السيرك يظل إلى الصبح يوش.. وبقعة من نوره سقطت على الصورة، أفخاذ ممتلئة، ورأس فتاة مذبوحة، مشدودة من شعرها بأظافر كالمخلب، والعين مفتوحة على آخرها فى ذعر، والدم يقطر من السكين، على الطرف الآخر بدا ذيل الأسد مفروداً، ورأسه محاصراً بالطوق الذى اتقدت من حوله النار.

أسفل الصورة تكوم رجال السيرك تحت بطاطين الصوف، والميكرفون صامت بارد ملفوف بالحبال على طرف العمود.

أما الخواجه فقد رمى قبعته، وارتدى الجلباب المخطط، واستراح فى ركن يشد دخان الجوزة بشوق شديد، يتأمل النفس المنتظم للبنت الراقدة، والضوء الشحيح انعكس على فستان الرقص المعلق بالمسمار.

كأن الأرض تتنفس، وتتجاوب مع أنين ساقية لا يستجيب له الفضاء الساكن. والمسجد امتلأ باللحم، امتد من درجات السلم، وحول المقام، وفاض إلى الصحن المضىء، يتحرك فيه رجال رفعوا نعالهم على رفوف الخشب، وهرعوا إلى الصنابير، يرشون الماء على الوجه ثلاثاً، ويستنشقون ثلاثاً لينتهوا إلى غسل القدمين حتى الكعبين، ليعودوا متلهفين إلى الصف خلف المأذون الذى وقف فى المحراب يذكرهم بأن الله لا ينظر إلى الصف

الأعوج. بعد أن يتمم على الصفوف، ويرى الكتف فى الكتف، يعطيهم ظهره، ويجعل الرأس بين الكفين، ليقول بصوت ممطوط قوى «الله أكبر» فيستجيبون لها بهمسات مترددة قلقة سرعان ما تتوحد فى صف واحد.. فتنهض من مقامها صاحبة العرس للصلاة، تصحبها هالة النور، من حولها ملائكة بيض الوجوه يصلون، نفس الملائكة التى حملت جثتها حين رفعت روحها إلى الملكوت، وحرستها على طول الطريق من بلاد الحجاز إلى الحفرة التى اختارتها فى البلد المبارك.

القسم الثانى

حلم التجلى
(مختارات)

السقوط على الأرض

هل سيبعث الله من عنده ثعابين وحشية تخرج عليّ من أكوام التبن القديم فى ظلمتى هذه التى لا أرى فيها كفى؟ الظلمة تلاشٍ، وعدم، وأنا لولا الإحساس بأنفاسى المترددة لقلت إنه الموت، والنهاية، ولكنى أرفع راحتى إلى فمى وأنفى وأشعر بسخونة النفس الخارج من جوفى، وأنا أسمع صريخ الإستغاثة من وراء الباب وأسمع السباب والزعيق، وضربات اليد المتجمعة فوق بدنها اللين، وأخشى على حملها من السقوط، وقدمى تستجيب لرغبة العقل، فتتحرك نحو الباب، إذن فأنا أتحرك موجعاً، ينقح الألم فى أعضاء جسمى المتهالك، أنا حى وأرى من خصائص الباب -فى ضوء الصبح الشاحب- ما يحدث بالخارج.

الباب الكبير المغلق، وطرقات المغيثين من ورائه قوية، ومتعجلة، وفى الردهة يقف الأخوان متصلبين، مستندين على الحائط، عاقدين الذراعين على الصدر، ويد العجوز أبى العجفاء الميته تنهال بالضرب، وقد نفرت عروقها الزرقاء، وجمد عظمها، ليهوى بآخر قواه على ظهر المرأة المحلولة الشعر، الممزقة الثوب،فتبدو الكدمات على الصدر المباح وعلى العنق، وفوق

الأصداغ أكف محمرة، مطبوعة، راسخة كنقش قديم. وعلي الأرض تبعثرت عباءته وشال عمامته، وهناك على عتبة حجرة نومه، وقفت الطفلتان مذعورتين، ينفض بدناهما بكاء يقطع النفس، والدموع سائلة على الخدود، وملتحمة بسائل المخاط والأفواة الصغيرة مفتوحة على آخرها تطلق أصوات الرعب وقد بدت في ظلمتها أسنان صغيرة خضراء.

وأنا هنا في حبسي مكدود الجسم، متيقظ العقل، لا أدرى هل هذه نهايتي؟ أم حبس إلى حين ينظرون في أمري؟ قد يصلون إلى أن يأتي العجوز بحبل سميك، يلفه حول رقبتي ويظل يضغط، بكل الغل المكبوت بصدره،حتي يعصر العنق تماما، ويميل صدري ميلته الأخيرة وتظل العينان الجاحظتان بفعل الخنق بارزتين خارج المحجرين ولا تريان شيئاً البته، فتتكدس فيهما ظلمة أخرى كثيفة، لا يكون فيها نفس، ولا حركة ولا ألم. ربما يكتفي بأن يرسل أحد الأخوين، يجرجر عرى المفضوح إلى البحر البعيد فيربط حول العنق الحجر الثقيل، ثم يغطس في الماء الغويط، تحت دوامة الجسر الهادرة، ويتركني أبقبق وحدى تحت ماء مستنفذ الهواء، وأسقط حتى طين القاع، وأغوص مرة أخرى في ظلمة جديدة غير مألوفة، محاطة بماء لا نفاذ منه، ويكون العجوز هناك أعلي الجسر يرقبني، ويفرك يده تشفيا ويشير إليه من بعيد، ليعود إلى الدار بدوني، وبإحساس الراحة بعد

الخلاص من عارٍ ينكس الوجوه، ويكسر العيون المعتادة على الكبرياء.

وأنا كنت نبهتها إلي أن العجوز في الأيام الأخيرة لا يطيق النظر في وجهي، ربما يكون قد عرف شيئا. يوم الجمعة بعد أن عدنا من الصلاة، وافترشنا أرض الردهة لنجتمع على طبلية الغداء رأيته ينظر بجانب عينيه الكليلة إلى فخذها الذي نام على فخذي المربعة تحت الطبلية وأنا سحبتها بهدوء وهي لا حقتها بإلحاح، دون اعتبار لنظرته المضببة وراء غشائها المبلول بماء لا ينتهي سيلانه تحت الجفن.

وفي ذلك الصباح حين عاد من صلاة الفجر، وكانت هي بغرفتي، لم تنتبه لموعد عودته، دفع الباب برجله، ودخل وهي خرجت من بابي مبللة البدن بشعرها المنكوش، وتلم بعثرة صدرها المفكوك، وسمعته يسألها عن سبب وجودها في غرفة هذا الولد؟ وسمعتها تجيب بوثوق، وبتحد أنها استيقظت على صراخ الكابوس فجاءت ترفع عني يده الجاثمة لئلا يخنقني، وهو بلع قناعته، ودفن شكه، وقال: طب جهزي لنا لقمة.

وتركها مشغولة باعداد الطعام، وسمعت دفعه المحاذر لبابي، ورأيت في إطباقة أجفاني، رأسه الذي طل من الضلفة المواربة، وشعر رأسي المبلول في عرق الجبهة، لا أدري هل فضح لقاءنا؟ أم أكد معركة مع كابوس رهيب كما ادعت له؟ وأنا افتعلت

الاستغراق فى النوم فمكنت الغطاء من حولى، ورددت أصوات النوم وأنا لا أعرف كيف خدث ذلك معها؟ فى كل مرة حاولت دفعه، وهى التى شجعتنى على الفعل، وكل مرة أقول لها: كفى. ولكنها فى كل مرة تسمع فيها آذان الفجر، وصوت ماء وضوئه على حنفية الصالة، وردة الباب القوية وراء ظهره، حتى تترك الطفلتين فى استغراقهما تعيد بعثرة شعرها، وتشطف الوجه الصابح، وتدلق العطر من زجاجتها الصغيرة المختفية فى طويات هدوم الدولاب، وأسمع خطوها الهين، ومعالجتها لباب غرفتى، وأنا ازداد انكماشاً وأدارى وجهى بوسادتى المطوية، وازداد تناوما، ولكنها تصر بجنون تهز الكتف بحنو يحرك الماء الراكد فى بدنى الصغير، فلا أصحو، وأشم عطرها، فأطرده من أنفاسى ولكنه يتسرب من تحت الجلد يدخل فى مسامى إلى دمى السخن، وتسرح بيدها الصغيرة العرقانة على وجهى وعلى جانبى العنق وتهبط يدها لتفتح أزرارى، فيصبح صدرى مباحاً لأصابع متوترة عفرتتها الرغبة العارمة وترفع عنى جانب الوسادة التى سال عليها عرقى فتميل لتشم بأنفها القلق، وأستحيل أنا إلى ذرات عطر ضائعة فى الهواء ترغب لو تنشقها فى شمة واحدة.

وتحرك فىّ الرجل، وكل مرة أخشى الاستجابة، ولا أقدر على النظر فى وجهها، فى كل مرة أرى فيه الشيطان الأحمر، وفى

العين الحانية الشبقة أرى أبى الواقف بيننا بعباءته السوداء كخفاش الليل، وأسمعه إلى جوارى، فوق سريرى، ويهتز فى بكاء العاجز وأسمع استغاثته بالأجداد والآباء وأمى التى ماتت. وتخبو الرغبة، وتموت مع تردد أصوات الصلاة من الجامع القريب، ولكنها لا تخضع أبداً للهزيمة، وتظل مصرة على الفعل فتقوم لتخلع عنها جلبابها، وتسحب جلبابى من تحتى، وأرى بياضها المغوى فى ضوء صباح يطل علينا من ثقوب النافذة، ولا تعود إلى فراشها إلا بعد أن تطرد نزقها، تعود بعيون تلمع فيها أضواء فرحة متحققة، وبضفائر مفكوكة على قناة الظهر المروى، رافعة جلبابها الذى أهمل على الأرض. واقترن عندى أذان الفجر وأصوات العجوز فى المرحاض، ودفق ماء الضوء على ذراعية العجفاوين، بخطوها الحريص وبأنفاس عطرها، وبتهيج الدم الزاعق فى عروقى. ولا أدرى كيف بدأ الأمر بيننا؟ ربما منذ كنت أسهر فى دار أحد الزملاء، أيام كنا نترك الكتب مفتوحة، لنصنع الشاى، وندخن سجائرنا الفرط، لنسبح فى حكاياتنا عن البنات، ويكون لكل واحد منهم حكاية مع بنت: واحد مع جارته، وواحد مع قريبته التى تزورهم فى الدار وأخر يحكى عن زوجة عمه وكيف رآها تستحم فى الطشت، منتصبة فى جوفه بلحمها الأبيض الشاهى، تميل فى كل مرة لترفع الكوز وتقوم لتصب الماء على شعرها فيسيل لا معاً فوق الجسد كله،

وهو فى مكمنه نائم على بطنه فـوق حطب السطـح، لينظر من السقف لا يحفل بالشمس التى أمسكت رأسـه دون رحمة، فيقوم إلى سـروالهـا المنشـور على الحـبل، ويدخل به عـشـة الدجـاج، ليكسيه باللحم الأبيض الشاهق، ويعنف فيه ليطلق منه التأوهات المسترحمة، وكانوا يضحكون منه، ومن خيبته، وينظرون إلى صمتي الكئيب، وتدور ابتساماتهم الخبيثة، على جوانب أفواههم لانهم يذكرون حكايتى مع جارتنا التى كنت أعود بها، فوق حمل البرسيم، فى شتاء قطع الرجْل من الطرقات، ومررت على المقبرة المهجورة وطلع لنا -من تحت الأرض- الحمار الذكر الذى أطلق نهيقة، وعفرنا بتراب الطريق، وضربه صاحبه ليواصل السير بحمله الثقيل، ولم يكف عن الالتفات إلى الحمارة التى رفعت ذيلها وحركت فكيها الضخمين، تلوك لسانها بشبق مخزون، وحرك هذا الرغبة العمياء، فانتحيت بها وراء واحد من الشواهد الكبيرة غير حافل برعب المقبرة، وبعد أن انتهيت رأيت الشاهد الرابض يزوم بشراسة، ويطلق الشرر من عينه الغادرة، فأجرى تاركا الحمارة ورائى تشمشم ورق الأرض، وتعود إلى الدار بعد أن رمت حلمها هناك.

حكيت لهم هذا، ولم ينسوه أبدا، إنما يبدون لى رحمة متكلفة، لأنى فارغ من قصص المغامرة الحقيقية، ثم يلمز أحدهم إليها، ويقول: كيف تتركها وهى ملك يمينك، وأنت تعرف عنها ما تعرف،

ويلمحون إلى شبابها الغض قبل أن تدخل دار أبى، وكيف كانت الحكايات تتناقل عنها وعن اختلائها فى حقول الذرة بالشاب الذى رفضه أبوها لفقره، ثم منحها للعجوز الثرى نظير إيجار فدانين، بعد أن هلكت يده المحتاجة، وكيف أرغمت على الزواج من أبى الكهل، البلد كلها تعرف ذلك، وقدمصمصت شفاهها عجباً والعجوز أبى لا يهتم، أدخلها الدار، وغلق الباب والشباك، وصك أذنه عن كل ما دار، وربما لا يعرف أنها كانت الرغبة العارمة الحامية لجدعان البلد ورضيت بقسمتها ونصيبها وأولدها العجوز طفلتين، بعد أن عزل ولديه الكبيرين، وجعل لكل واحد منهما داراً مستقلة على أطراف البلد، وفرغت حجرات الدار الكبيرة وصرت أنا وحيدا بينهما، لا يهتم بى العجوز ولا يسأل إن كنت أبيت فى غرفتى أم أننى أنام فى دار زميل، ولا يتذكرنى إلا حين أقف أمامة فجأة أطلب المصروف، أو أطلب ثمنا لكتاب جديد، ونبهنى الصحاب إليها، وكانت هى فى غفلة، ولا أدرى إن كانت مهتمة بدارها الجديدة الواسعة؟ أم فكرها هناك فى حقل صديقها القديم؟ كل ما أعرفه هو ما أراه من صحوها المبكر، وعملها الدؤوب فى الدار ما بين عشة الدجاج والزريبة وغسيل المواعين ولفف البنتين، والكنس وتنقية الحب وطحنه وإعداد طعام للعجوز، ورأت ذات مرة وقفتى المستغرقة أمامها وانتبهت من غفلتها لتلم صدرها المدلوق فى فم الطفلة،

ولتصيح في وجهي: مالك واقف كالصنم؟ ورأت ارتباكي وانسحابي من أمامها إلى الشارع، مضطرب الخطو.. التفت إليها من وراء ظهري وفي عيني رجاء: أنا لا أقصد. وكان خوفي من العجوز يوهن إرادتي. وفوجئت أنها مقبلة عليّ على غير العادة تهتم بي، تدخل عليّ حجرتي. تسألني ما إذا كانت لدي غيارات تحتاج لغسيل، وفاجأتها مرة على طشت الغسيل، تقرب قميصي من أنفها، وتطلق تنهيدة قصيرة.

وأنهت الحذر الذي كانت تبديه أمامي، فلا تهتم أن تغلق وراءها باب حجرة النوم وأصحو في هدوة القيلولة لأراها وحيدة في فراشها، رافعة جلبابها إلى صدرها لتبدو أفخاذها ساطعة في غبش الحجرة وأميل برأسي إلى الأرض، وكأنني لا أرى. وتجلس على درجة السلم مهملة لا تهتم بعري أفخاذها، ولا بسروالها البادي حتى لعين الغريب الذي يمر من الشارع.

وكانت الليلة التي طرقت فيها بابي حاملة كوب الشاي لتضعه أمامي وأنا منكفيء على السطور، ولا أدري هل قصدت إلى هذه اللمسة التي كهربت بدني، وانحناءها بالصدر المفتوح على آخره لأرى الغواية المحبوسة خلف شفافية الثوب؟ وسألتني: عاوز حاجة تاني؟

وساءلت نفسي: هل هذه عناية أم بولدها؟ أم أنها تعلم بالنار التي أشعلها الأولاد في جسدي؟ أم هي رغبتها غير المحققة؟

ورفضت تساؤلى الأخير وقلت: ولماذا معى أنا بالذات؟

حتى تحقق ذلك صباح يوم شتوى كافر البرد لأصحو بعد خروج العجوز على الأنفاس اللاهثة فى فراشى، وأقوم فأجدها إلى جوارى، وكان دفء وكان قرب، وكان إثم، أرعبنى طعمه عقب وقوعه، وقلت: لن يحدث هذا مرة أخرى. ولكنها تعودت على ذلك وتعود جسمى على صحوة الآذان، وأصوات المرحاض، ودفق ماء الوضوء، وخطوها الحذر، وعطر أنفاسها، وكل مرة حاولت التخلص من وسوسة الشيطان الذى يقبع فى دمى وكنت بعد كل مرة أخبط رأسى فى الحائط حتى يسيل الدم، وتعودت الهروب من البيت وتعودت السهر مع الزملاء، وطالت سرحاتى معهم، وتقلقل لسانى فى حوارى وهم لا يعلمون سرى المخبوء، ما زالوا يسخرون من واقعة الحمارة، ويدفعوننى للإثم معها، وهم لا يعلمون أنه وقع، ولا أقدر على إعلان فحولتى أمامهم، كما يفعلون، وشحوب بشرتى لم يفضحنى، ولا سرحاتى الطويلة، وأبى أمرنى بالانقطاع عن السهر خارج الدار، وهددنى بقطع لقمة العيش إن فعلت، وعرفت أنها وراء ذلك، وعدت، وقلت: فلتكن قويا فى دفعها.

ولكنها تعلن عن ولهها بى، وتسدر فى ذلك، لا تقيم للعجوز وزناً، وقلت: ربما سلوكها تجاهى يعلن عن شىء. وكل مرة أكذب نفسى، وصرت كأننى أنا صاحب الدار تسألنى عن طبيخ اليوم

وتهتم بنظافة حجرتى وترتيبها، وتهتم بهندامى، وربما أهملت حاجات الرجل الذى نحيا فى ظله.

وكنت قررت الهرب نهائياً، ولكننى قلت:ها هى قد حملت، وربما يمنعها ذلك من غوايتها. ولكن آذان الفجر ينطلق، وأصوات المرحاض، ودفق الماء، فأسمع خطوها الحذر وأشم رائحة عطرها وتأتى بأصواتها اللاهثة، تقترب وترفع جانبا الوسادة، وتسعى يدها المتوترة المبلولة فوق شعر الصدر وأكتم أنفاسى، وأفتعل النوم، دافعا يدها بقوة إلى بعيد، وتقوم، لتنضو عنها جلبابها وتسحب يدها ثيابى عنوة وأرى لحمها فى القميص الزاهى، وأرى انتفاخه البطن تحته، فترتد الرغبة، ونقوم منتفضين على دفعة الباب القوية لنجد العجوز مفكوك العباءة، بيده الخشبة الغليظة ومن وراء شاله المحلول أرى الشاربين العظيمين للأخوين، بعيون مستطلعة دهشة.

كان يعرف ويكتم فى صدره، لم يذهب هذه المرة إلى الجامع، بل انعطف إلى دار الأخوين وجرجرهما إلى هذه الحجرة ليكونا شاهدين على فعلنا الحرام، ويبرك على الأخوان، والعجوز الذى ذهب عقله يسحبها من شعرها المحلول إلى الردهة، ويكبس عليها بآخر أنفاسه وأنا مصلوب على الجدار، أتلقى الضربات من أربع أيادى حية، تضمر قوة بهيمية مكمونة لهذا الصباح العاهر، ويتناول أحدهم السكين الذى برق فى ضوء الصبح

الوليد المطل من المنور، ويسحبنى إلى المخزن.

وها أنا قابع يأكلنى الرعب من ثعابين جهنم التى قد تنطلق علىّ من التبن القديم وتنهشنى الخشية من أسياخ محماة فى النار المرتقبة، تنغرس فى لحمى، فيهترىء، وتتساقط عظام هيكلى لتكون نهاية عذابى. ما أزال أسمع صريخها بالخارج، وأنظر إليها من خصاص الباب تتكالب عليها أصابع عجوزنا ناشفة ترفع يدى الهاون لتهوى بضربة أخيرة كأنها تريد أن تقىء جنينها، ويدها فى حرص مستميت ترفع بطنها، تجمعه فى ضمة لتمنع السقوط، ويطغى على صريخها صوت الطرقات العنيفة واهتزازات الباب الخارجى وراء سيل الجيران الذين استيقظوا على استغاثتنا ربما ينجحون فى كسر الباب لينقذوها من اليد العظيمة التى تلفظ أنفاسها.

المحاولة

بعد آذان العصر، تركت الشوارع التى نامت فيها ظلال الدور، واتجهت إلى طريق الأسفلت لأعبر الكوبرى الصغير وأسير على شاطىء الترعة التى تدور من بعيد حول البلد، فأذهب إلى الجبانة، هناك الكافورة العالية التى ترمى ظلها على مقبرة الجد، على أول الجبانة رأيت الساقية القديمة بقادوسها الصدىء وخشبها الذى يعشش فيه السوس، طلعت على مدارها، ونظرت إلى البئر الجافة، غاضت منها الماء، فلم يتبق من أثرها إلا اخضرار الريم، وكنت على سور البئر وحاورت نفسى: أأسير من طريق الترعة أم من طريق المصرف، فأنا أخاف من شوارع الجبانة ومن أسوارها المهدمه التى يطل منها الشجر الذى يطن بين أوراقة الذباب الأزرق الكبير.

لما رأيته من بعيد استأنست به، واخترت الطريق، كان حافى القدمين، وذيل جلبابه بارز من الفتحة الجانبية، تظهر سيقانه المشعرة مشدودة العضلات تحت ثقل الدلو، كان ينقل الماء إلى حفرتين أمام الشاهدين الكبيرين، ينبت فيهما صبار محوط

بسور من جريد الأقفاص. قلت له: سلام عليكم. رد السلام وسألني: على فين؟ قلت: أحفظ النصوص فى ظلة الكافورة عند مقبرة جدى.

نظر إلىّ من الرأس إلى القدمين، ثم اقترب ليطبطب على صدرى قال: الله يعينك.

لما وصلت مقبرة الجد وقفت فاردا كفى، ورحت أردد الفاتحة بهمس ووجد شديد، واقتربت من شاهده المعمم، وكلمته، قلت له: يا جدى.. لم أعد اذهب إلى دارك، فأخوالى قد دب بينهم الشجار، الخال الأصغر استولى على الدار وطرد الكبير الذى أسكن عياله حجرة بدار أصهاره وسافر ليجمع الفلوس التى تشترى له قطعة أرض يبنى عليها دارا جديدة، يا جدى.. أمى تبكى عليك، وكل ليلة تقرأعلى روحك الفاتحة، وتراك فى المنام راقدا بقميصك الأبيض على سرير من الحرير الأخضر تحت تكعيبة العنب، وحين تقترب منك، وتبكى، تملس بيدك على شعرها وتأمر الأولاد الذين يرفرفون حولك بالأجنحة الشفافة، فيجمعون لها عناقيد العنب، وتمسح لها دموعها بطرف قميصك، وتقول لها: خذى.. خذى العنب للأولاد.

انتبهت على صوت قدمين تدوسان الورق الجاف المنثور بين

المقابر، كان هو، يقبل مبتسما ومظهرا أسنانه الصفراء بين شفتيه الغليظتين اللتين ينبت حولهما شارب كثيف مشتبك بشعر الذقن الخشن، كان يجفف بطرف الجلباب الذى تركه ينزل ليستر سرواله البفتة، وظلت الكرمشة رافعة الجلباب عن الأقدام، جلس إلى جوارى فوق المصطبة، وقال: جدك الشيخ عبد الله؟ قلت: أ.. قال: ونعم الناس. وسأل: وأنت ابن مين من أولاده؟ قلت: أنا ابن بنته. قال: أ.. ما شفتش جدك لما كان شيخا للخفراء؟ قلت: لا.

تنهد تنهيدة طويلة، ومد يده يخرج العلبة الصفيح من صداره، وراح يضع التبغ فى الورقة الخفيفة وسألنى: تدخن؟ قلت: لا... قال: جدك كان صاحب أبى.. وأبوك كان صاحبه، وسألنى: انت لا تعرفنى؟ قلت: لا..

ضحك ضحكة طويلة، انتهت بكحة أدمعت عينيه، مد أصبعه وعصر جانب العينين وقال: أيام بعيدة، وسألنى: عندك كام سنة؟

قلت له: أذاكر الإعدادية. قال: ما شاء الله.

ودلك فخذى بنعومة حركت دبيبا خفيفا فى دمى، انتظرت أن يرفع كفه، ولكنه لم يفعل، وحين نظرت إليه بحرج، واجهتنى عينه الجريئة، تنظر إلىّ بابتسام خبيث.

انتفضت العضلات تحت سخونة كفه، فزحزحت ساقى لتنفلت من قبضته، رفع كفه وأمسك بها السيجارة الملفوفة وقدمها إلىّ، قال: خذ نفسا. رددت بحسم وبخوف: لا أدخن. قال: دخنت الجوزة وأنا أصغر منك. فلم أرد.

وبدأ يحكى عن أبيه، قال إنه تاجر القطن الشهير الذى لم تعرفه أيامى، وإن كان يعرفه جيل أبى، كان ثريا جدا، يملك الدار الكبيرة المسورة بسور عال، تطل منه أشجار المانجو والجوافة التى تظلل حديقة واسعة فى مدخل الدار، وتكعيبة العنب، تحتها الطلمبة وسط الحوض، ماؤها يرد الروح، والمضيفة الواسعة المفروشة بكنب، وأخوته وأخواته وأمه الطيبة التى لا ترفع الطرحة البيضاء عن رأسها. كانت تلقى الاحترام من الجميع، ويدعونها «الحجة..» برغم أنها لم تحج، وأبوه الرجل النزيه كان يرتدى المعاطف الكشمير على الجلاليب الصوف، وطربوشه الأحمر، وأدمعت عيناه حتى سالت الدمعة على شاربه، وقال: لهذا ستجدنى قد حرصت على أن أجعل لشاهده طربوشا أحمر، وأحرص على أن أظهر مقبرته هو والحاجة بالنزاهة التى تليق بمقامهما، وكنت قد نسيت فعلته، واندمجت فى الحكاية، وسألته بشغف: وبعدين.. فأنا؟

ورد يحكي عن الموسم الذى أضاع ثروة أبية، وانهيار بيتهم، وموت الرجل الكبير بالسكتة وموت أمه الذى أعقبه بفترة قصيرة، وحياته فى القطار يبيع الكازوزة فى الصيف واللب والسودانى فى الشتاء، وهجرته للبلد، ثم عودته إليها برغم أنه لا يملك فيها قيراطا غير هذه المقبرة الفارغة إلى جوار مقبرة والديه.

سألته: يعنى أنت تبيت هنا؟

لف ذراعه حول ظهرى، وشدنى لأقوم، وقال: تعال أريك بيتى، وقمت معه، ولم يرفع ذراعه أبدا، حتى وصلنا عند الحفرتين الممتلئتين بالماء.

كانت الشمس قد غابت عن السماء، وانعقدت فى الجو كتل الغبار، والحقول من بعيد بدت فارغة، والزرع صار ممتدا فى وحدته، والشواهد صارت موحشة ومخيفة.

سألت الرجل: ألا تخاف عفاريت الليل؟ قال: ما عفريت إلا ابن آدم. وطلب منى الدخول فى المقبرة الفارغة، كانت مبنية بالطوب الأحمر ومفتوحة أرضها على السماء ومفروشة بالرمل النظيف.

قلت: إننى أراها من هنا. قال: لا.. حين تدخل ستشعر أنك

فى بيت حقيقى. وضعت الكتاب على السور، وأشرت إلى الشاهدين: هنا أبوك وأمك؟ أضاف: وأخوة صغار ماتوا من زمان.

وسألته: كلهم ماتوا؟ قال: لى أخوة تعلموا مثلك، واحد منهم لم أره من عشرين سنة، حصل على شهادة الجامعة وسافر إلى الخارج، دفع أبى عليه دم قلبه، ولكنه الناكر للجميل، لم يسأل عنى مرة.

وزحزح الكتاب من على السور فسقط فى الداخل، وقال: ادخل.. ادخل. انحنيت لأمرق من الفتحة المبنية بشكل محراب الجامع، غاصت قدمى فى الرمل فتراجعت، ولكنه دفعنى من خلف، فكدت أسقط على وجهى، وقال: ادخل. قلت: تمسيت والدنيا حتضلم. قال: بات معى الليلة.

قلت: لا أقدر. قال: أعمل لك شايا.

ورأيت مقطفا مركونا إلى جوار الحجارة التى يجعلها وسادة للنوم، قال: كنت أتمنى لو تزوجت وأنجبت ولدا مثلك، ولكنى لم أتزوج أبدا، كان أبى قد قرر تزويجى فى نفس الموسم الذى خسر فيه صفقته، وأنت ألا تتمنى أن تتزوج؟ قلت: لما أنهى دراستى.. أفكر فى الزواج.

وسألنى: عمرك ما نمت مع امرأة؟

فاجأنى السؤال، فملت برأسى إلى الأرض، رفع ذقنى بأصبعة الملومة، وواجهنى بالنظرة الجريئة، وقال: لا تتكسف.. قل الصراحة. قلت: لا والله.. أبدا. ألح فى السؤال: بذمتك ودينك. قلت مؤكدا: أبدا.. أبدا. قال: ولا نمت مع أولاد صغار؟

انتفض جسمى، وبدأ العرق يتسرب من مسامى، فرفعت أصبعى لأمسح جبهتى فواجهتنى نظرته الثابتة. قلت: أمشى. أمسكنى من ذراعي وقال: لسه بدرى.. هه.. ولا أولاد صغار؟ قلت: لا والله. قال: عينى فى عينك.

لم أرفع وجهى إليه، وهو مال برأسه، وأطل علىّ من أسفل مبتسما، وقرب وجهه منى حتي شممت رائحة فمه، وسألني وهو على حالته: ولا مع حمارة؟ أو كلبة؟

قلت: أريد أن أمشى.

قال: أجب على سؤالى أولا.

قلت: أبدا والله.

قال: زى حالاتى.. عمرى ما عملتها.

سألته: عملت إيه؟

أجاب: النوم مع أحد.

ثم واصل كلامه: ما رأيك؟ سألته: في إيه؟ قال: ننام مع بعض الليلة.

انسحبت بجسمي إلي الوراء، وحاولت أن أملص ذراعي منه ولكن أصابعه كانت قد ماتت على زندي، وبيده الأخرى أخرج مطواه من صدره، فردها بنطرة واحدة، وقربها من عنقي. قال: قلت إيه؟

كان قلبي يخبط بعنف على صدري، والعرق سال من كل جسمي، قلت له: حرام عليك. قال: مفيش فايدة.. حدبحك.

قلت له: لا أقدر. قال: حاول.

سكت فترة طويلة، والمطواة تحوم حول وجهي، وهو قد عض على أسنانه الصفراء، وسأل: هه؟؟ قلت: أمي تسأل عني. قال: قل لها كنت أذاكر مع زميل.

وأتى بالطوب الذي يجعل منه وسادة للنوم، وسد به فتحة المقبرة، وشد المقطف، أخرج منه خلقات قديمة، وكون منها وسادة لرأسه، ثم أخرج وابور الجاز والكنكة، التفت إليّ وقال: أعمل لك شايا.

ركن عدة الشاي، وذهب إلى الركن الآخر كاشفا عن مؤخرة يتناثر عليها شعر خشن، يخرج من عجزه في خط أسود إلى

ظهره حتى يختفى تحت الجلباب المشلوح، لوى رأسه نحوى وقال:هنا الكنيف.

وقفت منتصبا، ورأيت فى وقفتى رؤوس الشواهد تطل فى تطفل وطربوش أبيه الأحمر كان قريبا ودافق الحمرة مخفيا رأس الشاهد المجاور، وقلت فى نفسى: الآن هو مشغول بخرائه.. وهذه فرصتك وفى قفزة واحدة كنت ممسكا بطرف الطربوش، قافزا أمامه، داست قدمى الحفرة المبتلة، فرفعتها من الطين، وارتميت على الطين، وشعرت بحريق النار فى صدغى، ولكن قمت شادا كل عضلاتى، أجرى فى منعرجات شوارع الجبانة الضيقة، وهو كان فى عفرة التراب يصرخ من ورائى: حد بحك يا ابن الكلب.. حد بحك.

والمطواة كانت فى قبضته، وسرواله الساقط بين ساقيه يرفعه بين الحين والآخر، وكنت لا أرى شيئا أمامى، لقد صفرت الريح فى اذنى، وعلى طول الطريق كان الناموس الذى هاج مع قدوم الليل يضرب وجهى.

التجلى

حين طردت النفس الأخير، وسكن صدرها، انسحب ضوء العين، صرخت النسوة ومدت واحدة منهما أصبعين يسبلان الجفنين، ويسدلان الطرحة البيضاء على الوجه الذى صار أصفر بلون المصباح المعلق على الجدار.

مسح الخال دمعتين بطرف كمه وقال: يا عينى عليك يا أختى.

قبل ذلك بيومين وحين وصلت البلد مساء، كان بقلبى شوق شديد للقاء البنت التى أحبها، لكن أمى قالت: خالتك مريضة.. واجب تزورها.

قلت: لا أحبها. قالت: عمرها ما غلطت فيك.

دفعت الباب الموارب، ودخلت عليها غرفتها، كانت وحيدة فى فراشها، الغطاء على نصف ساقيها وشعرها منكوش يختلط فيه الشعر المصبوغ بالحناء بشعر عليه بقايا صبغة سوداء، التفتت على دفعة الباب، وكانت عيناها غائمتين لا تريان غير الدخان، سألت: من؟ قلت: أنا يا خالة. قالت: ألم تعثر على ابن خالتك فى مصر؟ قلت: يا خالة مصر واسعة.. غدا يجىء. قالت وهى تبكى

وكانت ترفع ذراعا تملس بها على شعرها ووجهها وترميها بعيدا: يا وابور يا بو عجل حديد.. هات لنا الغرايب من بلاد جديدة... دخلت أمى، افترشت الحصير، وأسندت ظهرها على الكنبة، شقت برتقالة نصفين وناولتنى نصفا، قالت: ناولها ربما تأخذ من يدك. أخذت نصف البرتقالة، قربته من شفتيها، فاصطدمت به، قالت: برتقال؟ قلت:مصيها. قالت وقد أدارت وجهها جهة الحائط: لا.. لا أريد.. نفسى لا تقبله. تركتها مع أمى، وخرجت أبحث عن الصحاب، لنقضى سهرتنا -كالعادة- على غرزة «العربى». قلت لهم: خالتى مريضة. قالوا: ربنا يشفيها.

حضرت زوجات عمى والجارات لابسات الهدوم السود، بحثت بينهن عن العيون التى أحبها، وأشتاق إليها فى بلاد الغربة، صوتن كثيرا وبكين قليلا، نوحن وقلن فى نفس واحد: يا خراب بيتك يا حبيبتى.

وكانت أمى قد قامت تجمع هدوم الخالة، تعقدها فى صرة ناولتها لأختى لتذهب بها إلى دارنا، لما عادت جمعت مع أمى الدجاج الذى تكوم فى ركن مظلم عند الفرن، ورفعتا معا صورتها عن الجدار (كانت تبتسم بوجه أبيض بلون الحليب

ملفوف فى طرحة خفيفة شفافة يظهر من تحتها منديل رأسها الأسود) النسوة سكتن مرة واحدة، وانتشرن على الحصر يمصمصن شفاههن، كانت تخرج منهن أصوات مكتومة متشنجة، ثم بدأن يحكين عن أمواتهن، ويذكرن أنها كانت نعم الجارة، نظيفة طول عمرها، عايقة، تحب الثياب الملونة، ولم ترفع طرحة الصلاة عن رأسها منذ أن مات زوجها، لا تأكل إلا اللقمة الحلوة، وقلن إن ابنها هو الذى كان شرسا وحشاشا وخمورجيا، كان يكسر لها الصينى والمرايا ولم تسترح إلا حين غادرها إلى مصر، ودعين الله أن يهديه، وأن يرحم أمه الطيبة، لما بدأن يتململن طلبت أمى منهن أن يعدن إلى بيوتهن لأن أزواجهن وعيالهن فى حاجة لهن، أما هى فقاعدة وأنا معها، ودعت الرب بأن لا تمشى لهن فى مكروه.

بقيت أنا وأمى وحدنا مع الخالة التى سترها الغطاء من الرأس إلى القدم، جلست أنا بين القدم، وجلست أمى عند الرأس ساندة خدها على كفها، أغفت قليلا، ثم انتبهت فجأة تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم. وطلبت منى أن أساعدها فى تقليب الجثة خوفا من الرائحة التى قد تنتشر منها، رفعت الغطاء فبان وجهها، وانكشف فخذها، قربت أمى عينها من وجه الخالة مدة طويلة، بعدها وجدت ملامحها انكمشت وانفرطت من عينيها

دموع غزيرة، وبكت بصوت عال لم تستطع منعه، وراحت تعدد:

ديرى المخدة يمين

مانتيش غشيمة يابنتى

زاد على النين

ديرى المخدة شمال

ما نتيش غشيمة يا أختى

زاد على الحال

أنا الذى حافظت على دموعى بكيت بكاء حقيقيا بدموع وحزن شديد شعرت معه بأن جسدى يتطهر، ورأيت -فجأة- أن خالتى فى نومتها هذه مظلومة، بل اكتشفت مرة واحدة أنها كانت طيبة جداً، وأنها كانت تحبنى كابن لها، مسكت كفها التى صارت عروقها زرقاء تتفرع فى جلدها الذى فقد لونه.

نامت خالتى فى طاعة على جنبها الأيسر، لملمت ثوبها، وسترت فخذيها، وجمعت فتحة الصدر بالدبوس الذى كان مشبوكا فى جانب واحد، حين ثقلت رأسى رحت فى غفوة قصيرة.

(رأيتنى صغيرا جدا بين يدى الله الجالس على عرشه المضىء، على يساره سور عال تطل منه ألسنة اللهب المرعدة،

على يمينه سور عال تطل منه أغصان العنب المثقلة بالثمار)
انتبهت بعدها على صوت المؤذن: سبحان من تسمى قبل أن يتسمى.. سبحان من كان عرشه على الماء، سبحان من علم آدم الأسماء.

شعرت -في الحال- أن خالتي نائمة، وأنها سوف تقوم من نومها حين يطلع نور الصبح.

في الصبح أحضر الرجال المغسلة، أدخلوها حجرة الكنب بعد أن رفع ووزع في الشارع يقعد عليه المشيعون، أما النعش فقد ركن أمام الباب، في جوفه كان اللحاف يلمع حريره الأحمر، وباقة ورد ذابلة ثبتت في المقدمة عند الرأس.

أخرجت خالتي من بين الضلفتين لفة بيضاء معقودة من كل جانب، فاحت قبل أن تطرح الخشبة رائحة عطر عتيق، تركنا أختي وحدها في دار الخالة، بينما سرت أنا في المقدمة مع الرجال يتأبطني صاحب كان معي في الفرزة أول أمس، والنسوة هرولن في أعقابنا بعد أن صوتن كثيرا عندما طلت اللفة البيضاء من الباب، وعندما توقفت خشبة الميتة، وحرنت من الرجال تريد أن تدخل الدار، قالت النسوة: يا وابور يا بو عجل حديد.. هات لنا الغرايب من بلاد بعيد.

عقب صلاة العصر حضر الشيخان، دخلا المضيفة، ووقفت أنا فى الصف مع الرجال أستقبل المعزين يقولون: عظم الله أجركم. وأرد: شكر الله سعيكم.

بينما النسوة فى دارنا قد أوقدن النار، وصففن عليها أوانى ممتلئة باللحم الذى أحضرة الخال من جزار القرية المجاورة، وبالبطاطس التى اشتريتها أنا من السوق.

قلن إنه حينما وصل مع زوجه اللابسة السواد، صرخت النسوة فى وجهه وجددن البكاء الذى نزفنه فى الصبح، فما كان منه إلا أن سبهن جميعا وطلب منهن أن يخرسن وأن يرحن إلى دورهن، فالميتة هى أمه وليست أم أحد غيره، وأكدن أن عينه كانت حمراء بلون الدم..

أما أنا فقد رأيته وأنا فى الصف بين الرجال مقبلا عند أول الشارع بوجهه الضاحك لا يظهر عليه حزن.

وقالوا: إن موت أمه لم يهزه، بل لقد كان فرحا، فهو سيرث الأرض التى سيبيعها للغريب، ويقعد فى الدار مع زوجه التى لا تلد أبدا، وسيرتاح من أمه التى ضربها كثيرا وكسر القلل فى وجهها، وطعنها بالسكين حين طالبته بأن يعود للوظيفه ويدع لها الأرض ترعاها.

سلم عليّ، وقال إننى قد أوحشته. وكيف أكون فى مصر ولا أزوره فى بيته وهمس فى أذنى أن بجيبه تعميرة نظيفة، وأننا سوف ندخنها عقب هذه الزيطة التى لا داعى لها، ووقف إلى جوارى فى الصف يمد يده للرجال، فى التو انتشرت رائحة الكحول من جوفه، فتركت الصف ودخلت عند النسوة آكل طبق بطاطس أو أرز فقد شعرت بجوع شديد.

هناك عثرت عليها بينهن تخرط البصل، ودموعها غطت العينين الجميلتين، وسالت على خديها اللذين طلع عليهما ورد أحمر، ابتسمت لى وهى تزيل الدموع الساقطة، نسيت الجوع، وحاولت أن أصل إليها، قالت لى حين حطت الإناء على الفرن: الليلة.. فى نفس المكان.

فى أول الليل أشعلنا النار، وجلسنا فى الغرفة التى بآخر الدار، حين كان يرص الحجارة ويمد لى يده بالغابة، قال النكتة التى أضحكتنى، وغطت على تشنجات النسوة المكتومة فى حجرة الكنب.

فى آخر الليل كنت بين الجدارين المهدومين فى انتظارها.

حلم «أبو عطية» القديم

فى الحجرة الرطبة رقدن، فى كتلة الظلام الأبدية كانت حركاتهن المحدودة ما بين الردهة والباب والشارع حيث يجتمعن بباقى الصبية فتغنيهن الكبرى ما حفظت من أغاني..

ولأن العيون مطفأة -لا ترى حلاوة الدنيا- مرقت كبراهن من طفولتها إلى مراهقتها إلى سنها الحالية دون أن يأتى ذلك الرجل الذى رأته -عبر ليل كثيف- قادماً ليروى جفافها بذكورته..

والأختان الصغيرتان يتبعانها (لأن العيون مطفأة) وكل مساء ينتظرن العجوزين.. وكل مساء يرقد العجوزان إلى جوارهن. يلتصق الجسدان.. وفى شوق ينتظران. و (الدولاب) يدور.. بين القدمين يدور، والطين يتخلق بمس اليدين المعروقتين. و (نعمات) تجىء وتروح ما بين (الدولاب) والحصى المفروش تحمل ما صنعت أصابع زوجها لتعرضه للشمس الساخنة.

والعقل الذى تحويه الجمجمة العجوز المضمومة بالطاقية

الصوف يدور، واليوم ينتهى حين تغرب الشمس، ويأتى غيره حين الشمس تشرق.

قالها لنفسه كثيرا «غداً ينفرج الحال» وحين قالوا له أول مرة «مبروك». كان سعيدا، ولما دخل على (نعمات) الشاحبة المرهقة، قالت: بنت يا (أبو عطية)، كان سعيداً، وأرضى نفسه الغير راضية «كله من عند الله» لكن العين لا ترمش حين تتحرك أمامها الأصابع، تظل على حملقتها الجامدة عند تحولها من الظلمة إلى النور الباهر.. عرف أنها عمياء. حزنت (نعمات) الجاحدة، أما هو فى باطنه كان راضياً، يجمع التراب الناعم، ويحمل صفائح الماء ليبلله، بقدميه يلوكه، ثم ينقيه من الطوب الدقيق، ليرفعه -بعد ذلك- إلى (الدولاب) كتلاً صغيرة.. فيدور به.. وبين أصابعه تتشكل (المتارد، والأباريق، والمواچير).

تحملها (نعمات) حيث الشمس الساخنة. ثم (الفاخورة) الملتهبة، يقف إلى فوهتها يدس الحطب الجاف، ويرتفع الدخان كثيفاً يملأ الدور القريبة، يحمر الفخار ويبرد.. يأتى (برهم) ليرفعه إلى عرباته الكثيرة.. يلف به الأسواق، والقروش الكثيرة تنفخ كيسه الكبير، والقروش القليلة تبقى فى يد (أبو عطية) والطعام يأتى حين تأتى القروش. فتزدهر الحجرة الرطبة بها،

لكنها تكلح لما تقل فى صدر (نعمات).

وحرقة أخرى، وبورة أخرى ما بين التراب والطين وصهد النار.. و (الفاخورة)تشتعل لتطفأ، ومن بطنها يخرج الفخار محمراً ليرصه على عربات (برهم) يومها قال له: أنجبت بنتاً.. ولما لم يرد أكمل: غدا تكبر فيضاف إلينا فم جديد، وأنا فى حاجة إلى زيادة.

ضرب الحمار، وأمر الحوذى بالمسير، التفت إليه:ليس هذا وقته يا (أبو عطية) ثم إنى زودتك حين تزوجت، ولم يمر على ذلك عام.

فى الحجرة الرطبة تمدد إلى جوار (نعمات) والجسد الريان ينفخ لهيباً كفوهة (الفاخورة) وقالوا له -ذات يوم- مبروك.

كان يحلم بالولد، لكن الولد لا يجىء لأن (أبو عطية) يعاند الله، وعرف أنها كأختها عمياء، قالوا له: لأنها قريبتك تأتى خلفتك عمياء.

وأغروه بالزواج من غريبة. و(نعمات) الطيبة يحبها، واليد الفقيرة عاجزة، زار (برهم) فى داره، قال:بنتان يا معلم.. جئت أتوسل إليك.. القروش لم تعد تكفينا، الكبيرة تأكل والصغيرة تكبر مع الأيام.

فتل شاربه، ورشف الشاى قال: يا (أبو عطية) ماذا أفعل أنا والسوق راكدة. عرض عليه فكرتة: أعطنى الفخار «الشُرك». وحين انفضت الجلسة، وافق على نصفه.

والليل يأتى بالظلام، وقبل الظلام تنتهى الأعمال. فيغتسل فى الطلمبة، وينزل الطين الذى علق بساقيه وقدميه، ويدخل جسده فى الجلباب النظيف، والحجرة الرطبة بها المصباح الصغير، تصبح ظلماء حين ينطفئ، وفوهة (الفاخورة) فى جسد (نعمات تلفحه باللهيب الذى يبرد حتى ينام والرضى يشمل بدنه النحيل. دخل عليها يوماً -كانت تلقم الطفلة ثديها- جلس فى ركن، انتبهت إليه قالت:

- ما بك يا (أبو عطية). لم يرد، وحين ألحت أجابها:

- (برهم) رفض. طلب منى إذا اردت زيادة أن تعملى معى.

قالت:

- وماله؟

- والعيال؟

- لا تخف عليهم.

- ... ...

- (أبوعطية) ماذا تقول عنى؟ هذه ثالث طفلة عمياء.

– اتخوضين فى الله؟

– ولكنك فى حاجة للولد، فتزوج غيرى إن شئت.

– لما أجد الطعام لنفسى.

والصمت ساد، وانطفأ المصباح، لكن الفوهة لم تعد ترسل نارها، اقترب منها، التصق، عرف أن النار فيها لكنه استدر، ونام.

شمرت جلبابها، عقدته، صفت كتل الطين، فرشت الحصى، فوقه رصت ماسوته يدا (أبو عطية).. تطلع إليها (كان سعيداً) فى جسده تشتعل النار من أجلها. لكن الخوف يخمد ناره. قالوا له: لا تقربها فإنه لا جدوى ستأتى الرابعة عمياء.

و (نعمات)تدلق الماء على الجذوة إذا صحت فيها، والجذوة لا تخبو، تظلم الحجرة، وتبقى العينان يقظتين، والخفقان يرسل الدم الحار فى كل الأنحاء، تطلع إليها، عظام الترقوة برزت، والثديان تفرقا كجلدتين لا داعى لهما، والصدر ازرقت عروقه الكثيرة الدقيقة، والأخوات هناك حيث الرطوبة يكسى أجسادهن اللحم الطرى.

والحسرة فى حلق (أبو عطية)..

والحسرة فى حلق (نعمات)..

ولايقدر أحدهما أن يقول للآخر: إن العرسان لن يقبلوا على بناتنا.

والحسرة تزيد..

لأن لحم الكبرى يموت، والأثداء التى كانت يوماً منتفخة ضمرت، والشارب تحت الأنف، وبرزت الأسنان، والعيون ظلت مطبقة على ليلها.

لكن (أبو عطية) كان يراه صغيرا أول الأمر يحبو..

وحين كان ينظر إلى زوجه رآه، يذهب فى طريقها ما بين (الدولاب) والحصى.

باليد القوية يرفع كتل الطين الكبيرة..

وبالرجل الراسخة يلوكه..

وكان ينوب..

وبالخوف يذوب..

وفوق الحصى يجف الطين الذى صنعه، يدخله (الفاخورة) يضرم فيه النار، أمام الفوهة يقف. يدس الحطب، ويرمى السرس، والنار تغرد بالداخل حمراء وقوية، و (نعمات) بجسدها أمامه، يشتهى النار فى الحجرة الرطبة، والخوف يجىء لكنه هذه المرة لا يطفئها بينما الثلاث يرقدن إلى جانبهما، وراء الظلمة.

مكان للنوم

قال لى صاحبى ساكن المدينة: أسأل لك عم أحمد بتاع الشاى.

وتركنا المكان المزدحم بالناس والعربات ودخلنا شارعاً على ناصيته بائع الكفتة الواقف أمام الأسياخ يهب بمروحته على النار، فيملأ الحى بالدخان، وكان عم أحمد على الطرف الآخر واقفاً على طوبة كبيرة يكبس وابورالجاز الذى سوّد بدخانه كلمة مكتوبة بخط غليظ فوق الكشك.

قلنا: سلام عليكم.

والتفت بوجهه البشوش الأسمر، ثم نزل على الطوبة يمسح يده بكهنة قديمة: نهاره أبيض. وسلم على صاحبى بحرارة وود، ومسح لنا الكرويتة المركونة تحت حائط الجامع، لما شمت أنفى الرائحة الكريهة، تلفت حولى، رأيت الشبابيك الصغيرة المنسوج عليها عنكبوت قديم، والجدار الراشح حتى نصفه، عرفت أننا نقعد أمام حائط الميضة.

وقال عم أحمد: وشك والا القمر.

ورد صاحبى: مشاغل يا عم أحمد.

وطلع على الطوبة، غرف من البستلة كوز ماء، دلقه فى البراد، وكبس الوابور مرة أخرى، ورحت أتأمل الشارع، والبنات الجميلات، والعيال الذين يعفرون المكان بلعب الكرة، والميدان خارج الشارع يهدد بالعربات والزمامير، وبدت زاوية كبيرة من مئذنة الجامع المطل على الميدان.

قال صاحبى: الأستاذ كان زميلى فى الجامعة.

بص لى عم أحمد وقال: يا مرحبا.

وقال صاحبى: من الشرقية.

صب الشاى فى كوبين، ولما ناولنى الكوب قال: أجدع ناس. وتكلم صاحبى فى الموضوع، وعرّفه بأننى أبحث عن غرفة أقضى فيها مدة التجنيد. وعرفة بأننى سكنت بالحى وراء الجامع الكبير، وتركت السكن حين أنهيت الدراسة والآن أنا محتاج لغرفة، وبالغ صاحبى فى الموضوع، وقال إننى ابن ناس ومن الأعيان فى بلادنا، ولا أدرى إن كان الرجل اقتنع بى أم لا ، لأنه سكت حتى رجع من دكان العجلاتى الذى يركن دراجاته على الرصيف المقابل، أحضر أكواباً فارغة، رجها فى ماء الدلو، وقال لصاحبى: بس خليل هو اللى يعرف الحاجات دى. وسأله صاحبى: وفين خليل دلوقتى؟

قال: تلاقيه فى الجامع.

وصحبنا لندخل من باب الميضة، ورأيت الرجال يعدون على الحصير وآخرين يقفون للصلاة، ورجالاً يتوضأون فوق أسمنت الميضة، وصاح عم أحمد بصوت تردد صداه فى الجامع: ياخليل.

وسمعنا خليل يرد من المراحيض: أيوه يا أحمد. قال له: ناس هنا عايزينك. وخرج من الباب الذى انسحبت من فتحته جاكتة رمادية، كان يضع على رأسه طاقية من القماش الأبيض ووجهه أصفر بلون الكركم، وكانت أصابعه تقطر الماء على البلاط المتسخ، رآنا فاتجه إلينا يخبط فى الأرض بقبقاب خشب مبلول. سلمنا عليه من وسط ذراعه وقال بصوته الناعم مخفضاً وجهه إلى الأرض: أهلاً يا أساتذة. وقال عم أحمد بعد ما أشار إلىّ: الأستاذ غريب وعايز تدور له على أوضة. أدخل ذراعه فى الجاكتة، ولما أراد أن يدخل الذراع الآخر، تاه منه، دار حول نفسه، ضبط الجاكتة على أكتافه، ثم أخرج منديلاً كبيراً مكرمشاً ليمسح به يده، جفف به وجهه وقفاه، وتركه هناك تحت الياقة، وقال: أنا خدام.. بس المشوار بجنيه.

قلت: مفيش مانع. قال: عندى أوضة نشوفها ونرجع قبل آذان

العصر. وسرنا في الشارع الطويل، فوق شريط الترام الذي يلمع في ضوء الشمس، وصلنا مقام الشيخ المدهون بلون أصفر، وبخطوط بنية عريضة، وقف خليل على شباكه، وفرد كفيه وقرأ الفاتحة، وقفت خلفه مع صاحبي، ورأيت الشاهد المكسو بالحرير الأخضر تنتصب حوله شموع طويلة، ورأيت برايز الفضة المتناثرة فوق ظهره وعلى رأسه الكبيرة الملفوفة بعمة حمراء.

ودخلنا الشارع الضيق بالبيوت الصغيرة، كان بداخلها نسوة قاعدات، وعلى بلكوناتها الخشب المتشابكة غسيل يقطر الماء على الماشين، وخرجنا إلى الوسعاية، وسطها شاهد وحيد عليه لوحة رخامية وكتابة سوداء ودجاج ينبش جريدة ناشفة، كانت الوسعاية مرشوشة بالماء، وهناك على المصطبة رجال يدخنون الجوزة، وولد نحيف بشعر منكوش، كان يرص لهم الحجارة ويملأ الصفيحة الصدئة بالحجارة الفارغة، وبعيداً عنهم نام الرجل الذي يركن عصاه ومدد ساقيه المربوطتين بقماشة، كانت المعزة تنسل فيها، وهو لا يشعر تاركاً نفسه للشمس المتسلطة على جسمه المخدر، وإلى جواره صبية تغسل مواعين، ثوبها مسحوب عن فخذها الأبيض وقطعة كبيرة من سروالها تبدو على ناصية، لم أستطع أن أرفع عيني حتى طلعت المرأة السمينة المرتدية الجلباب الملون من الحجرة المظلمة، كانت تربط رقبتها

بمنديل، وعلى رأسها إشارب أحمر يتدلى منه الترتر وخصلات من شعرها الأكرت وحلق كبير يهتز على وجهها القمحى، لما رأتنا مسحت يدها وركنت ظهرها على الباب، اقترب خليل منها، ووقفنا على جنب، ضربته على أكتافه وقالت: يا واد سايب الجامع وبتلف؟ قال لها وهو ينظر إلى الأرض: أكل العيش يا أم وردة. ومال على أذنها كلمها بصوت واطىء، دفعته بيدها الكبيرة، وقالت: ابعد يا متنيل. وبص إلينا بخجل. ثم مال بوجهه إلى الأرض، وتركته واقفاً مكانه، واتجهت إلينا ولمحت صدرها الممتلىء، كان يطفح على الفتحة البياض المحدد بوساخة وسواد، وسألت: مين اللى عايز يسكن؟ قلت لها: أنا. قال: لوقربت شوية كان عندى أوضة خدها افندى زى حالاتك. قال صاحبى: معلهش.. مفيش نصيب. قالت: خليل يعرف واحد تانى يا خدكم عليه.

شد خليل المنديل من خلف القفا، ومسح به وجهه، وقال: أنا واخدهم على عبده. ودخلنا الشارع الضيق الممتد من الوسعاية، مررنا على شواهد كثيرة مصفوفة بطول الشارع، وانشغلت بقراءة الأسماء المكتوبة وتواريخ الموت، وشعرت بكآبة ووحشة، وظلت عالقة بذهنى آية «يا أيتها النفس المطمئنة» المكتوبة على كل رخامة، ولما خرجنا إلى النور فرحت بالزحمة والناس الذين

يسعون فى كل ناحية، وماتت الوحشة داخلى، عبرنا الشارع ومشينا فى ظل العمارات وقلت لصاحبى: نشرب عصير.

وقفنا على باب الدكان، وانتعشت بالرطوبة التى تهل علينا من الداخل، بسمل خليل حين مد يده إلى الكوب فوق المشمع المبلول، شربه مرة واحدة، وعلقت على أنفه رغاوى مسحها بمنديله، ثم أعاده إلى قفاه.

وكان منكفئاً على الرصيف وراء العدة، صندوقه مرقع بمائة خشبة، علية الحديدة المثنية كأنها قدم مقلوبة وإلى جواره كيس قديم مدلوق من أحذية وشباشب حريمى وصنادل عيال، قال خليل: خلى عنه.

حط كفه على جبهته وضيق عينيه، واستمر مدة حتى سحب المسامير من فمه الفارغ من الأسنان وقال: عايز إيه يا خليل؟ قال له: ازيك يا عم عبده. لم يرد عليه، انشغل بدق مسمار فى حذاء معلق على الحديدة المثنية، وانحنى عليه خليل وأحاط كتفه بذراعه، وهمس إليه بصوت منخفض بعدها التفت إليه الرجل، وضيق عينيه وكان وجهه الجاف بأصداغ ممصوصة له شارب عليه صفرة الدخان، كانت تلمع فوقه قطرات ماء، وسأل: مين اللى عايز الأوضة؟

اقتربت منه، وربت بيدى على صدرى، وقلت: أنا. سألنى: بتشتغل إيه؟ وايجارها خمستاشر. وسأله صاحبى: فين هى؟ مسح شاربه بظاهر الكف، ورشف من شاى الكوب المركون تحت قدمه، وقال: شارعين بعد الشارع اللى قدامك. قال خليل: فوق السطح، مستقلة بنفسها، وبحمام جواها .

قلت له: نشوفها.

رفع الرجل إصبعه أمام وجهه وقال: خمسة جنية قبل ما أقوم. نظرت إلى صاحبى بخيبة أمل، وقلت له: بينا نرجع مفيش فايدة.

قال خليل: بعد العصر أشوف لك مكان تانى.

وعدنا لنقعد على الكرويتة تحت حائط الميضة، وعم أحمد قدم لنا كوبين من الشاى الثقيل، وكلمنى: يا ابنى أنا حسألك.

وسمعنا صوت خليل من الداخل يؤذن العصر، كان صوته رخواً، ليس بصوت الرجل الناضج، ومال صاحبى على أذنى وقال: سامع صوت خليل؟ قلت له: سامعه، وضحك وقال لعم أحمد: الظاهر خليل فيه لله.

نتر ذراعه وصعد على الطوبة وضحك ضحكة كبيرة أظهرت سنتين صفراوين بينهما فراغ وقال: ربنا يسهل لخلقه.

وبدأت الشمس تختفى وراء مئذنة جامع الميدان، ورمت ظلاً طويلاً دخل علينا الحارة، وأمسك عم أحمد الدلو ونثر ماءه على الأرض، وارتفع صوت مذياع بائع الكفتة، وفجأة رأيت «فهمى» يدخل الشارع، يحمل كتابين تحت إبطه، وحقيبته بيده، مرّ من أمامنا ولم يرنى، فنهضت لأنادى عليه: فهمى. نظر إلىّ بدهشة، وقال: مش معقول.

ركن الكتابين على الكرويتة، وارتمى فى حضنى، قبلنى، وارتاح دمى فى عروقى، ونسيت هم المشاوير، أخذته من يده، وكان عم أحمد واقفاً على الطوبة يبص علينا، قلت له: اعمل شاى مضبوط. قال: على عينى.

وسألنى فهمى: بتعمل إيه هنا؟ قلت له ويده لم تزل نائمة فى كفى:انت اللى بتعمل ايه؟ قال: أنا ساكن هنا ورا الجامع. قلت له: أنا أعرف أنك كنت فى الجيزة. قال لى: ما خلتش مكان. وكنت نسيت أعرفه على صاحبى، قام مرة أخرى وسلم عليه، وقال له: لا مؤاخذة. وقلت لصاحبى: فهمى زميل كلية بس قبلينا بدفعتين. وقال صاحبى: شفته كتير فى الجامعة لما كان يخطب. تنهد فهمى وقال: أيام ما تتعوضش.

وقصصت عليه الحكاية، وكيف أننا من الصبح نبحث عن

حجرة، وعاتبنى لأنى لم أذهب إليه، وقلت له: أنا ما عرفش. وقال إن حجرته تحت أمرى، لاعيش فيها كما أريد، وقمنا فى التو، وتركنا خليل -الذى أنهى صلته- قاعداً على الكرويتة ينتظر أن أطلب له شاياً، واعتذر صاحبى وقال: معلهش ما أقدرش أطلع معاكم عندى مشوار. وأشار فهمى إلى البيت وقال له: لما تحب تزورنا تطلع السلم لغاية ما سقف السما يخبط دماغك، تبص يمينك تلاقى أوضتى.

وضحكنا ثم سلم علينا وخرج إلى الميدان، ودخلنا الشارع الآخر لنتجه إلى البيت المجاور للجامع.

كان بابه ضخماً كباب الوسية، وبعد ما عبرنا طرقة مظلمة، دخلنا فى حوش واسع مفتوحة عليه أبواب ونوافذ بدت منها دوائر سرير وكنب مفروش وتلفزيونات أمامها ناس يتفرجون، دسنا الزبالة المبعثرة على أول السلم، وهش فهمى القطط الملومة عليها، وصعدنا سلماً ضيقاً ومظلماً درجاته متاكلة من وسطها وكأن جيشاً غازياً قد مر عليها، على السطح كان النور الخفيف ما يزال يعم الدنيا، وصارت ضجة الميدان بعيدة، والسيارات ظهرت أمامنا من فتحة السور، وأشار فهمى وقال: هى دى أوضتى. سألته: لوحدك. قال: معى صديق من البلد وهو

دلوقتى فى أجازة. وأخرج مفتاحا صغيراً، أدخله فى القفل المعلق فى الرزة، وشعرت أن الباب ضعيف لا يحمى شيئاً بداخله، والحجرة مبنية بألواح خشب ومسقوفة بخوص ويتراكم على سطحها كراتين وأقفاص، ومن ناحية برزت مدخنة الحاتى الذى يفتح على الميدان تعفر السطح برائحة تغيظ.

فى الصالة الصغيرة المعتمة رأيت وابور الجاز يتناثر حوله عيدان كبريت وأوانى قعرها أسود ومركونة عليها أغطيتها، وترابيزة خضراء عليها أطباق بلاستيك، دفع فهمى باب الحجرة برجله، فاهتزت الجدران، وانهال على رأسى تراب من السطح، وكان بها سرير مراتبه غاطسة إلى الداخل وسرير آخر عليه ألواح خشب مصفوف عليها كتب، والحذاء كان بادياً أسفل الألواح وكنبة فراشها ممزق، صعد فهمى عليها ورفع ترباس النافذة، وظهر النور مرة أخرى، وسمعنا ضجة الميدان دائرة كطاحونة. قعدت على الكنبة، وقرأت كلمة مكتوبة بطباشير على الحائط جهة الباب وابتسمت، وتأملنى فهمى ثم نظر إلى الكلمة المكتوبة وقال: عشان ما انساش. وعدت بالذاكرة لأيام الدراسة، ورأيت فى ضبابها فهمى عند سلم القاعة فوق كتف الزميل جامعاً كفيه على فمه، وعروق رقبته كانت منفوخة عن آخرها وهو منفعل ومتوتر والطلبة حوله يسمعون ويتناقشون وأنا بينهم

مشغول بجراعته، ولم أك أفهم الكثير من كلامه، وكنت أسائل نفسي: معقول؟ طالب نحيل لابس قميص ألوانه باهتة، وجزمته نعلها متاكل عنده الجرأة يهاجم الحكومة برئيسها؟

وكان كلامه يسرى فى دمى، وكنت أحس أن عقلى يطقطق، ينهض من ركدته ليتمطى ويصحصح، وأقول لنفسى: دا أنا جاى من البلد جاهل. وكنت حين أتخيل نفسي مكان فهمي، أرتعش، وتنهار ساقي من تحتي، واقول: خليك هنا أحسن.. أنت مش فاهم.

كنت أتمنى لويصير صديقاً لى، لما عرفته وجدته طيباً وابن حلال وصاحب صاحبه.

خلع فهمى قميصه، وفرده على السلك المربوط وسط الحجرة وقال لى: قم اغسل وشك. قلت له: فين؟ أخرج يده من الباب وقال: هناك فيه زير وحنفية. ولما رجعت وجدته يخرج لفات من حقيبته، فردها على الجريدة، وشد «حلة» من تحت السرير بها خبز، وقعدنا لناكل، وكلمنى، وحكى حكايتهم حين أتوا هنا للقبض عليه، ستة ضباط أصغرهم بدبورتين، حاصروا السطح وأمروا مخبرين بالوقوف على كل شباك والضابط الكبير دفع الباب برجله، ولم يجد غير صديقه الذى يشاركه الحجرة غاطساً فى قعر السرير مستغرقاً فى سابع نومة، وسأله: زميلك فين؟

قال له: مسافر.

فتحوا الحقائب وأكياس المراتب وكسروا دولاب الخشب، أخذوا الكتب، وحين وجدوا صورة لامرأة عارية، تفلوا فى الهواء وقالوا: وكمان له فى النسوان. وقطعوها، ودسها واحد منهم فى عب صديق فهمى، ولما تمرد على ذلك، ضربوه على أصداغه، وربطوا عينيه بمنديل، وسحبوه معهم، وهناك ارادوا إجباره على الكلام، وفى النهاية ضغطوا عليه ليوقع على ورقة، وقالوا له: دا إقرار لما تعرف عنه حاجة تبلغنا.

وقصّ علىّ حكايات أخرى، وشربنا الشاى مرتين، ودخنا سجائر علبته السوبر، ثم مددنا فى قعر السرير، وفتح كتاباً وقرأ لى، وأنا أسمع حتى سقطت فى النوم

فى العراء

وماذا كنت أفعل بعد أن أكلت غدائى الدسم، ودخنت الحجرين وجامعت امرأتى على سريرى العريض هذا؟ أنا سائق عربة الأجرة التى ألف بها وسط لحم الزحام فى شوارع تختنق بالعربات الملاكى والأتوبيسات الممتلئة بالأجساد الملتحمة.

لما تفرش الشمس ضوءها المستطيل على فرشتى أقوم من نومى لآكل لقمة سريعة وأخطف نظارتى الشمسية من فوق «الكوميدينو» المكسور الضلفة، لأهبط السلم الذى انبرت درجاته، أهش قطط الجيران المشغولة بزبالة الصفائح المركونة على البسطة.

وأستقبل النهار بسعلة تنفض بقايا المعسل من رئتى، وأحيى البقال الذى يقف وراء بنكه، وأصبح على صبى المقهى القائم على الناصية، وأعبر شريط الترام فأدخل هذا الجراج الوسيع.

وأنطلق بعربيتى لأدور وأدور.. يلفحنى برد الشتاء، فأحتمى منه بالكوفية والجاكتة القديمة.

ويرهقنى خر الصيف فأستعين بمناديل الورق، وبقمصانى الخفيفة.

فماذا كنت أفعل؟ وأنا معتاد على العودة كل عصر، لأجد أطباق الطبيخ تنفث بخارها الشهى فوق الجريدة المفروشة على الأرض، وأكون قد ارتديت جلبابى الخفيف، وشطفت وجهى على حنفية الحمام الذى يشاركنى فيه هذا الجار الطيب، وزوجته النحيلة المعروقة، وعياله العفاريت الذين يختفون كلما رأونى طالعاً على السلم، ليفاجئونى ب «بخ» فأفتعل الرعب، وأرفع يدى إلى أعلى مستسلماً، ويخرجون من وراء السور المنخفض مهللين مبسوطين برعبى، فأرفع اثنين منهم على ذراعى، ويمشى خلفنا الثالث ممسكاً بطرف البنطلون كنت أود لو أمتلك عيالاً مثله، يستقبلوننى على البسطة صائحين: «بابا جه.بابا جه»

فها هى امرأتى تسقط أجنتها، فرحمها ضعيف، لا يقدر على رفع الثمار الناضجة، مرة واحدة، مرة واحدة فقط، فى السنة الثانيه لزواجنا، رمت لنا ولداً، ما شاء الله، كان كأحد هؤلاء الملائكة المحلقين على داير السرير، وجه غض ممتلىء، وبشرة بيضاء ناعمة، ويدان صغيرتان طريتان، وشفة حمراء تغرى بالقبل، وما كاد ينطق «بابا» حتى اختاره إلى جواره، دوختنى هذه الضربة المفاجئة على يافوخى، ولأنه كان من الصعب أن أفرغ من عملى لحمله إلى البلد، حيث أدفنه -هناك- مع جده، رفعه الحانوتى على ذراعه وسار به إلى مقابر «الغفير» وفى آخر النهار جاءنى ليقول: دفنته هناك فى تربة واحد باشا، أى والله

باشا، لشاهده طربوش أحمر كبير ورخامة مكتوب عليها اسمه بخط أسود، وقمت بالواجب، قرأت له الفاتحة كما قرأت بعض الآيات.

وناولته أجره فقبَّله ورفعه إلى جبهته عدداً من المرات، وهو يقول: إنهم أحباب الله، وستجده هناك ليساعدك وأمه عند المرور على الصراط. فماذا كنت أفعل يا هذا الحشد فى الزقاق، يا هذه العيون المحملقة فى النافذة لترى عريها؟ أكان من الممكن أن أتركها فى الحمام؟ الرغاوى على عينيها وفى طبلة الأذن، فلم تسمع، ولم تر، وحدثتنى نفسى:من الأفضل أن تنزل بها جسداً عارياً حياً يرفرف من الرعب بدلاً من أن ترفع الأنقاض عن الجسد المحطم وبدلاً من أن تتناثر أعضاؤه فتجمع من كل ركن قطعة.

وهل كنت أنانياً يوماً ما، لأقفز من النافذة وحدى؟

وأتركها!

وهى التى استقبلتنى حين عدت، رفعت هدومى المخلوعة عن السرير، وأحضرت لى الجلباب الأبيض النظيف، وفرشت الجريدة المطوية التى ركنتها فوق الوسادة ووضعت عليها بقايا طبيخ الأمس، وقالت: معرفتش أجيب سمك.. الجمعية موت. وعدت من الصالة أجفف وجهى بالفوطة، وجلسنا معاً نبلع اللقم، واحساس بالفراغ يلاحقنا دوماً، فهناك الرغبة المزمنة، أن

تمتلىء هذه الفراغات الممتدة بين فخذينا المربعين بأولاد صغار.

فولدنا الوحيد استطاع -قبل أن يموت- الزحف من حجر أمه، ليعارك ورق الجريدة، ويمد يده الصغيرة إلى الأطباق، وكنا نهشه بدعة، وتنظر إلىّ وأنظر إليها بفرح، ها هو الولد يشاكس من أجل الوصول إلى الطبق، ونحن نمنعه، وأمه تهدئه، فتقطع له لقمه صغيرة من الرغيف، وتبلل أطرافها من أحد الأطباق، وتمدها إلى فمه الذى يفتحه بغشم وتقول: هاااام. بعد أن حمدت الله، ودعوته أن يديم النعمة ويحفظها من الزوال قمت لأضع الفحمتين على وابور الجاز، وأغير ماء الجوزة، وفتحت ورقة السولفان الحمراء وقطعت منها حجرين، يحركان الدم، ويشعلان الرغبة العارمة.

دخنت، وشربت كوب الشاى الذى صنعته، وطلبت منى اسبرين، وقالت: دماغي حتنفجر، الشمس خبطت فى راسى فى الطابور.

وبحثت فى جيب القميص لأخرج لها قرص الاسبرين، فقلبته مع قليل من الشاى فى قعر الكوب.

بعدها أغلقتُ شيش النافذة المفتوحة على السرير، وركنت ظهرى على الوسادة، أستمتع بالنور الهادىء، وبالرطوبة الخفيفة، وأستمع للدم الصاخب فى عروقى حتى زحفت إلى الفراش، وتمددت إلى جوارى، بعد أن حلت منديل رأسها وتركت

شعرها مفروداً حول صدغيها، وزاد صخب دمي لما تحركت اليد إلى صدرها الذى دفق بياضه خارج حدود المشد.

وفعلنا كما يفعل الناس، ونمت راضياً عن نفسي وعن الدنيا، وقلت: الحمد لله. وبست ظاهرى يدى، وقلت:لا تطمع.. بكرة يعدلها.

نعست بعمق حتى سمعت الضربة القوية وصوت الانهيار، كأن الدنيا بدأت تنهدم، أو كأن القيامة قد قامت، فى البداية فكرت أن الترام خرج عن شريطه ودخل فى جدار البيت.

ولكن صوت الأحجار التى تندفع إلى باب حجرتى نبهنى بأن ما يحدث «هنا» فى شقتى، بالدور الثالث من البيت القديم بكوم الشقافة.

حاولت أن أفتح الباب، فلم ينفتح إلا بصعوبة، كانت بعض الأحجار قد تراكمت خلفه جعلت أحدفها حجراً حجراً، فانفتح الباب، ورأيت السماء تسقّف الصالة والحجرة الصغيرة التى نملأ فراغها بالنملية والترابيزة وأوانى الطبخ وطست الحمام وأشياء كثيرة صارت جدرانها فى الشارع ورأيت من خلالها الدكاكين والاعلانات والعمارات المقابلة والناس المزدحمين على الأرصفة، ينظرون إلى أعلى ويصرخون: انزل.. انزل من الشباك.

قلت: أين «سعدية» زوجتى؟

وسمعت صوت وابورالجاز فى الحمام ويدها خارجة من تحت الباب تدفع الأحجار.

فتحت عليها الباب فجأة، فصرخت، ودعكت الصابون عن وجهها، ولما رأت الفراغ الذى أرفعها إليه، رفست برجلها وصوتت بآخر ما عندها: يا لهوى...

رفعت الملاءة التى كنت أغطى بها جسدى ولففتها حول جسدها العارى وعلى ركبتى، زحفت لأنظر من النافذة المطلة على الزقاق، فوجدت رجل المطافىء يتسلق السلم الحديدى الطويل، رآنى فأشار إلىّ: انزل...هات إيدك.

قلت: معى زوجتى.

قال: طلعها الأول.

وحملت الجسد الخجلان الملفوف فى الملاءة، كانت ترفس برجلها، وتبكى غارسة أسنانها فى كتفى، وخبطتنى على صدرى كلتا يديها صارخة: لا..لا.

وحقدت على العيون المحملقة، حين طالعت الجسد علاها الابتسام الخفى، ورأيت الأولاد يتدافعون بالأكتاف، ويشبون على أقدامهم ليروا بشكل أفضل، وأنا ألملم أطراف الملاءة على صدرها المبعثر، وحول البطن وعلى الفخذين، وأمد يدى إلى رجل المطافىء ليلمها بذراعه على صدره، ثم أنزل أنا بظهرى. جاعلاً أطراف الجلباب بين أسنانى مبعداً نظرى عن وجوه الناس.

يوم للدود

★*الصبح:*

كانت الشمس تتقد برؤوسنا حين رأينا المهرة تنشق عن كتلة الغبار البعيدة، قطعت البنات الغناء بعد إذ دارت عصا العجوز الطويلة اللينة على ظهورنا وأفخاذنا.

صرنا صفا من الظهور المحنية المرعوبة، تبحث عيوننا -بعناية - عن الورقات المصابة.اقترب الغبار تسبقه المهرة المكتنزة، تعتليها القبعة السوداء والقميص الشفيف، والسوط الأسود.

- اسكت.(قالت البنت التي عن يميني.)

وكنت - من قبل - أحاورها. ولم أفلح - بعد- من التأكد ما إذا كنا سنلتقي عند الغروب، وكنت قد حددت لها المكان في حوش المقبرة، سمعنا لهاث المهرة في ظل الصفصافة النائمة، وضربات سيقانه بين الشجيرات، غطى عليه زعيق العجوز، يسب بهمة آباءنا وأمهاتنا.

★*الظهر:*

سرنا بعرض أرض القطن الممتدة، يقطعها المصرف، ماءه عكر يطفو عليه الريم، ويسبح في بطنه الضفدع وكلب البحر،

بأعلى المصرف طريق عليه طبقة من التراب المهتاج.

عند (السبيل) الذى جف ماؤه وتسلقته ملوحة التربة، قفزنا اختناقة المصرف إلى الطريق، تنتهى عنده مصاطب القبور، تعلوها الشواهد المدهونة بالجير والمنحوت على رخامها اسم الراقد فى سبخه.

كان العجوز هناك عند الجسر بصحبة الملاحظ، كان يلاعب عصاه بالهواء، ويحادثه بحماس، وكنا قد علونا مصاطب الطين، ودسنا مصطبة بحجم جثة طفل، لنصل إلى المقبرة العريضة الواسعة المشيدة بالطوب الكثيف الأحمر والأسمنت حيث نتكوم تحت الظل الكثيف لشجرة التمر حنة، بذورها ضاربة فى لحم التربة تمص دم الموتى، وتتصاعد فروعها خضراء ريانة بعيدا عن الفضاء تنشر الظل السكن، يطن فى رطوبته الذباب الأزرق.

نشرنا المناديل المعقودة على الجبن وقحوف الكرنب المخلل، وترددت بين المقابر الهمسات وصوت تكسر الخبز الجاف، ظهر العجوز والملاحظ مقبلين من جهة الجسر.. بينما كان ولد قد ترك منديله، وقبع هناك، عند الجذع كاشفاً عن ظهره، وولد آخر يتأمل كدمات العصا المنتشرة على الظهر المزرق.

★ المغرب:

النخلة يمتد جذعها -المائل على السور المتآكل- إلى السماء البعيدة، لينتهى بجريد جاف وسباط تتشبث به بلحات

ضامرات.وفرع الشجرة المخضر مفرود بعرض الحوش تحلق بين ورقاته أطيار قلَّ نظرها، وهناك في آخر الطرف كان خفاش معلق ينتظر القيام.

وكنت أنا بالداخل مع شاهدين لأحدهما طربوش أحمر يسقط على خلفيته زر أسود، والآخر رأسه بهيئة امرأة.. عيني على الطريق الملتوى بين الشواهد الطويلة والقصيرة تنتظر جسدها النحيل ومنديلها الأحمر يتناثر من جوانبه الشعر الطويل.

داست قدمي الورق الجاف فخشخش، وانتفضت سحلية كانت راقدة، جرت مذعورة إلى جحر في السور، اختفت للحظة ثم عادت تطل برأسها وعينيها المبرقتين. قلت لنفسي:

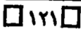
– إن خافت هي.. سأخاف أنا من الحوش المظلم ورؤوس الشواهد المطلة.

(من قبل كن قد التقينا بين عيدان الذرة حين أرادت جمع أوراق الملوخية، حين اشتقنا الرقاد في القناة الجافة بين الأحواض، فاجأتنا رأس صاحب الأرض الغاضب بالشارب المرتعش، جرينا وسط الزرع حتى انضممنا إلى الأولاد على الجسر، كانوا يخلعون الثياب ويلقون أجسادهم في الماء الرائق.)

لما سمعت الصوت رأيت الرجال على كتف أحدهم فأس، والآخران شمرا الجلباب وقبض عليها بالأسنان، يسيرون بهمة جهة الطريق الصاعد، وراء ظهورهم كان الغبار متجمعا حول

جماعة يتوسطهم نعش يهتز، وينطلق من بينهم عويل نسوة يلطمن الخدود، ويثرن التراب.

خفت أن يتعرى القلب، وينكشف الشوق الحرام، أردت أن أطلق القدم للريح، لكنى آثرت أن أدير لهم الظهر، ورفعت الجلباب، أخرجت من ثنايا السروال بشرى الراقد، رحت أخطط السور المتهالك بالبول، فامتصت الحجارة الماء بشوق.



ضحكة الملائكة

– ١ –

اتجهوا نحو الطريق المسفلت حينما خرجوا من الجامع الذى يقع على أطراف البلد، على يسارهم كانت «الساحة» ينتشر على بساطها الأخضر أولاد يرتدون فانلات ملونة موزعين على ألعاب مختلفة، وعلى يمينهم كانت الشمس الكبيرة الصفراء تتوارى خلف أشباح النخيل البعيد، وكانت شمس أخرى تبرق على شريط السكة الحديد الموازى للطريق المسفلت، كانت هذه الشمس تسير معهم ببطء.

– ٢ –

نظر واحد منهم إلى الوراء، ولم ير غير التراب –الذى أثارته الدواب فى رواحها– على بيوت البلد وسور السكة الحديد ومبنى المحكمة القديم، انضم إليهم فجأة، بعد أن انحرف بعيدا عن الأسفلت ليتفادى سيارة أقبلت مسرعة جعلته يثير زوبعة صغيرة من التراب النائم، وهم أيضا تركوا الأسفلت وساروا فوق التراب تحت الشجر الصغير المحوط بأقفاص من جريد.

قال واحد للآخر الذى يرفع على ذراعيه المنتصبتين اللفة

الصغيرة المسدول عليها باشكير نظيف: خلي عنك شوية.

زفض الآخر وقال مصمماً: خلاص.. هانت.

-٣-

بعد قليل تركوا طريق الأسفلت كما تركوا الكوبرى المسور بالحديد وساروا بمحاذاة الترعة التى تنحرف بشدة جهة القرافة، وقبل أن يعتدلوا تماماً فى الطريق الجديد نظروا جميعا مرة واحدة إلى أعلى الكوبرى فلم يروا غير السيارات التى تمرق فجأة والشمس التى توقفت بعناد على شريط الحديد ولم يسمعوا غير صوت الموتورات المتفجرة وصياح الأولاد وراء سور «الساحة».. والنسوة المجتمعات على الحنفية العمومية تركن الماء يندفق فى فوهات الجرار وسترن سيقانهن العارية ووقفن متأملات.

وكانوا قد فقدوا الأمل فى مجيئه تماماً حينما استقبلوا الشواهد القابعة فى سكينة.

- ٤ -

ساروا وسط التراب المثار بين الشواهد فى شوارع صغيرة ضيقة. كانوا يمرون على مصاطب كثيرة بها فتحات مظلمة،

عميقة الغور، ومجهولة. رأوا لمعة قفطان الشيخ ورأس الرجل الذى عقد خصرة بحزام عريض. لما اقتربوا منهما قام الشيخ ونفض القفطان فانهال كثير من الورق الجاف ومد يده إلى اللفه الصغيرة وقال لحاملها: تأخرتم..

ومد له يده بالباشكير الذى رفع عن الجسم الملموم فى كفن أبيض يحدد تكويرة الرأس وانتفاخة البطن وانتصابة القدم، وقال واحد من الرجال: كان لابد أن ننتظره.. ولكنه لم يحضر.

ونزل الشيخ إلى الحفرة بحذر والرجل الذى عقد الحزام العريض على بطنه نزل وراءه وظل منحنيا مدة طويلة وعيناه مركزتان داخل الحفرة، أما الرجال الذين انتشروا على السور الواطىء فقد جلسوا يرقبون من بعيد وكل واحد منهم يرى جانبا من المشهد الذى يحدث بالداخل، ويتسمع لتراتيل الشيخ التى تأتى مكتومة، متعجلة.

— ٥ —

وقف واحد منهم حين رأى الرأس الأسود المتحرك وسط رؤوس الشواهد الجامدة وجعل نظره مثبتا على بقعة السوادالغائبة فى شحوب المغيب، ذلك أن الشمس كانت قد انتهت كلياً ولم يتبق من أثرها غير بقعة الدم الحمراء الكبيرة

المعلقة علي جانب سحابة سوداء.

وقال فجأة: أظن وصل.

فقاموا جميعا ينظرون ثم قالوا معاً: هو.

والرجل الذى عقد الحزام العريض على بطنه كان قد وقف حين وقفوا ولما سمع تأكيدهم انحنى جهة الفتحة وقال للشيخ: انتظر.

-٦-

ظهر الجسم كله طويلا وسط المصاطب ضائعا بين الشواهد واقترب منهم فوضحت ملامحه المرهقة، ولما دخل الحوش الضيق ارتمى فى حضن أول رجل وراح ينتفض فى بكاء مكتوم، والآخر الذى احتضنه ظل يربت على ظهره ويشده إليه بقوة ثم رفعه أمامه وجعل الوجه فى الوجه وقال له بثبات: اجمد.

-٧-

قال الرجل الذى حضر لتوه وهو يسحب منديله الخارج من جيب البنطلون: أشوفه. فشده الرجل نحو الحفرة وقال واحد من الآخرين: طبعا لازم تشوفه.

وأشار إلى صاحب الحزام العريض فانحنى فى الحال جهة

الفتحة وسحب منها اللفة التى تهدل قماشها الأبيض من كل الجوانب فبدا الوجه الصغير الذى تشرب لون الغروب، كان جامدا على بسمة ذابلة كتلك التى تحدث للأطفال فى نومهم وتقول عنها الأمهات إنهم يضحكون للملائكة الذين يلاعبونهم، ضمه الرجل بقوة إلى حضنه وقبله كثيرا على جبهته وعلى خديه وفوق أنفه ولم يتركه حتى أخذوه منه غصباً ليعطوه للشيخ الذى قعد متململاً رأسه بالخارج وباقى جسمه العجوز داخل المقبرة.

-٨-

لما أهالوا عليه التراب كانت الظلمة قد حطت ثقلها فوق الشجر وسكنت الطيور، ومن جهة البلد ظهرت مصابيح متفرقة نورها قلق وضعيف.

والأب الذى جاء متأخراً ظل منكفئاً على المصطبة فوق الفتحة بالضبط وهم كانوا قد تركوه لحاله وظلوا فى جلستهم فوق السور الواطىء عاقدين الأيدى على صدورهم، والشيخ كان قد ارتدى جبته وعقد شال عمامته وجلس ممسكاً المسبحة الطويلة بيده، ومن حين لآخر ينظر جهتهم ويتنحنح.

التحاريق

- أ -

خلع معطفه الميرى الأصفر، مدده على كومة التراب، ألقى عليه حجراً.. وقف على الحافة، الأقدام غاصت فى الطين اللين -عليه اثار حوافر، وحشائش وشوك جاف.

القدمان فى العمق، والماء البارد حول الساقين.

«النهر الكبير يخرج من بطنه الماء إلى الروافد الكثيرة، والترع الصغيرة تجلب منها الماء، تجف حين تبقى فى النهر الأكبر..»

الزاحتان تجوسان فى البقعة الفوارة بطين القاع.

«الجهد يذهب سدى دون سد.»

من أمام قطع من طين الحافة، وصنع سداً.

الأشجار تحنو بفروعها الخالية من الورق، قطع بعضها منعاً للمعاكسة..

ومن خلف أقام سداً.

«الجهد يذهب سدى دون دلو..»

قبل البدء فى النزح، صعد إلى الجسر، السواد الطين فى ساقية حتى الركبتين، قرب البرسيم من الأشداق التى سال

عليها الزبد، نفخت الماشية، واقتربت فى كسل، عدَّل الخيش على ظهورها.

نظر جهة المدينة.. لم يأت الحاج بعد، الطريق فى امتداده يتمطى وحيداً، ونفاخ النار راقد فى جوف الأرض، الريح لمَّا تزل للقافز فوق الزروع وعلى رؤوس الأشجار، الكفان المتلاصقان يحملان ماء ما بين السدين، يدلقانه.

«وراءك حتى المغرب يا صيدى الحلال..»

— ب —

فى طريق العودة –قبل يومين– رأى صيادين فى باطن النهر بشباك فيها سمك حى كبير وصغير، يبيعونه فى سوق المدينة للكبار والصغار. فى العمق زحفت اليدان بحذر.

فى جانب عثرتا على سمكة «أيتها السمكة.. لست مرامى.» رآه بظهره الأسود يسبح، ضرب سطح الماء، واختفى.

السماء انسدت بغيم أسود، الضوء الباهت المشبع بالبرد شمل الحقول البعيدة والقريبة، تطلع يبحث عن الشمس تدفىء عظامه.

يجمع الحطب الجاف، يضرمه ناراً فى (راكية).

«على الجذوات يكون أكثر اشتهاءً..»

عاود نزح الماء الذى لا ينتهى.

ذاب طين السد تحت ثقل الماء، قطع له من الحافة، ضغطه بيده، دعمه بالكتلة الكبيرة، مرر الكف على سطحه، وجانبيه.. بدا متماسكاً.

الكلب يتشمم السمكة المنزعجة على الجسر، هدده، لم يهتم. رماه بطوبة لاصقة بباطن الترعة. رجع بظهره للحظة، ثم حاول الاقتراب فى تصميم، خرج إليه، لم يكف عن رميه بالحجارة حتى اطمأن أنه لن يتجاسر على العودة، وضع السمكة المتربة فى المنديل، جمع فتات الخبز المتبقية فيه، دفعها إلى فمه. نظر جهة المدينة «ربما لا يأتى الحاج اليوم..»

- ج -

« الأم تأتى بالسمك الصغير من السوق، تكون الفرحة إذا عاد به إلى الدار..» حين تجف الماء، وتعود الجنيات التى تتربص بالناس إلى بيوت النار فى الأغوار، يرقد السمك فى القاع، أو يموت على الحافة.

« ترعتنا لا يأتيها إلا الصير.. فكيف هرب من شباكهم المتينة؟؟» عثر على سمكة، أراد أن يلقيها على الجسر، تذكر الكلب «ربما يعود» دسها فى عبه، خبطت بطنه بزعانفها

الضعيفة، ثم همدت «تموت بعد المعافرة». الجحش الصغير نهق بدلع «هل رأى أمه يركبها الحاج؟» نظر جهة المدينة، فلاح خلف حماره يردد أغانى قبيحة.

- تعال

- الحمار عليه حمل.

- قدمه من البرسيم.

أدار وجه الحمار، شمر كميه وذيل جلبابه، نزل إلى الجانب الآخر.. تقابلت الأكف.

- لا شيء.

- ألكذب عينى؟

- سمكة؟

- قرموط.

تراجعت الأكف، غاصت الأصابع فى العمق.

— د —

تقاطر الدم ممزوجاً بطين اليد، وصرخة الآه كانت جادة، انتصب الآخر، قدم مهرولاً فى بقايا الماء العكر، مسح الدم بالماء.

- الحذر:

– القاع ممتلىء بالشوك، والزجاج.

عـاد هو والآخـر كل إلى مكان، تشنجت الأعـصـاب بكفـه السليم، التقت الأكف فى المنتصف.

– أنت تبحث عن الوهم.

– اصبر.

– وأشغالى؟

تسلق الآخـر الحـافـة غـارسـا أقـدامـه فى الآثار القـديمة المطمئنة، هدم –هو– السدين، تدفق الماء المحتشد بشوق، صعد خلفـه، وقف على الجـسـر، قـدَّ من ذيل الجلبـاب، ربط جـرح الإصبع.

– سلام.

– سلام.

طرح جسده منهداً على الكومة، سلم وجهه للغيم المتراكم، يتوالد فى أشكال خرافية، انتفض على الضربة المفاجئة، أزعجت الماء الراكد.

فى لمحة كانت عينه فى عمق الماء الفوار.

داس الطين، قطع منه ليصنع سداً من أمام، وسدا من خلف وراح ينزح بالكفين.

المنسية

- ١ -

الباب الغربى مفتوح لاستقبال هواء البحر المنعش، وساعة الغروب ينفذ منه الضوء الأصفر الذى يستطيل حتى يرتمى على الجدار، يتمطى ليخرج من النافذة المطلة على السلم.

من الباب الغربى تتدحرج أسماء إلى الفسحة -ينتشر على أرضها تراب ناعم لا يقضى عليه ماء الطبيخ والغسيل والاستحمام.

وهناك -فى الفسحة- تعطى الطاحونة ظهرها للدار، تطل نافذتها -المسودة القضبان- على البئر الساخنة وحفرة ماسورة العادم، تطلق دخاناً أسود يترنح فى الهوء حتى يدخل عشة الدجاج، فوق السطح. هى تتدحرج تحت عشة الفرن، بناها جدها من طوبة حمراء وطوبة سوداء، وعًرشها بالخوص والجريد، وفرش سقفها بالقش، لتحمى الفرن الراقد فى الركن كفحل الجاموس. أسماء تنقل تراب الفرن الأسود، وتدسه هناك فى فتحة صندوق الغلال البارك كجمل عجوز.

وتسحب عود الحطب الجاف، لتنكت فى التراب، بعود

الحطب، ويدها صغيرة لينة، لكنها تصر، وتخرج الطوبة والطوبة حتى تعثر على الدودة، تمسكها بين إصبعيها الصغيرين وتقربها من عينيها، تركنها وتواصل الحفر، هى لا تعلم أن الحفرة عميقة، وبعيدة الأغوار.. لا تحفرى يا أسماء، فهنا هنا ترقد العظام، لا تحفرى.

-٢-

وكانت العمات حين أقبلن ودخلن الدار قلن لأبيها: نوم أسماء.

وارب الشيش، وطرد الذباب المكدس على السرير، أخذها فى حضنه، وكان قد لقمها البزازة، وراح يهدهد على كتفها هدهدة منتظمة حتى ثقلت جفونها ولم ترفع عينها الساهمة عن وجهه، حتى أخذها النوم.

وانطلق صراخ أمها من الخارج، فقامت منتفضة فزعة باكية، حملها وهو حائر بها.

خرج إلى الصالة، ورأى انقباضة وجهها الصغير، ويدها ممدودة إلى الحجرة التى ينطلق منها الصراخ، التفت حولها العمات، وقلن: لا حول ولا قوة إلا بالله..

وطلبت أن يخرج بها إلى الفسحة، حتى لا يزعجها الصراخ،

واشتد بكاؤها، واشتدت رغبتها فى الدخول إلى الحجرة، وراح يجمع اللعب التى قد تلهيها، كان يعرف أنها تحب ذلك القفل الأسود الكبير المعلق فى الباب الغربى، فأخذها إليه، ظلت تضرب القفل فى خشب الباب، والصرخة لما تشتد وتصل إليها، تتوقف فجأة عن اللعب وتنصت، وتعبس ملامح وجهها، وسمع أبوها أصوات الرجال عند الطاحونة، يمسك أحدهم الشعلة، والآخر قبض على ذيل الجلباب بأسنانه، قال لنفسه:ستدور الطاحونة، وتلغى الصوات فلا تسمعه أسماء، ولا يسمعه الجار المتطفل.

أخذها إلى نافذة الطاحونة لترى الرجال قد استماتوا على اليد الحديد يلفونها بقوة، والطارة الكبيرة تسرع فى دورانها كثور هائج، ومكثت تنتظر حتى ملأ الدخان المكان، فقعد بها على الكنبة في الهواء المتجدد إلى أن جاءت العمة مندفعة تجفف يدها فى صدورها، قالت: الحمد لله.. قامت بالسلامة.

سأله: ولد ولا بنت؟

قالت: بنت.

سألها: عاملة إيه؟

قالت: بين الحياة والموت.

وأكدت أنها لن تعيش، وقالت بعد لم الخلقات القديمة: فى داهيه.. المهم سلامة الكبيرة.

وعاد ينظر إلى أسماء، فيراها مبتسمة مستعدة للعب، مشيرة إلى القفل المعلق على الباب، وضمها بين ذراعيه بفرح شديد.
اجتمعت العمات على الكنبة، وقلن: أسماء بالدنيا.
وهمسن فيما بينهن: البنت حتة من أسماء، نفس الوش.
قالت واحدة: بعد الشر، أسماء جميلة.
سألهن: البنت صاحية؟
قالت واحدة: عاشت ثلاث ثواني، بعدها شهقت ثلاث مرات، وماتت.
وطلبن من الأب التصرف في دفنها، قال: آخذها وأدفنها فى تربتنا بعد الظهر.
وقلن: لا تربة ولا يحزنون، هات حد يحفرلها فى الحوش.
وخرجت الداية بالميتة، قطعة لحم داكنة ومزرقة، أخذتها إلى الحمام، ومددتها على الطبلية، خلفت الداية جلبابها، وبدأت تنزح الماء من الطست، وتتلو الآيات.
وقام الأب ليشترى قطعة القماش الأبيض، وواحدة من العمات صعدت إلى السطح تمسك دجاجة، وواحدة انكفأت على المنخل تنقى الأرز من الطوب الصغير.

-٣-

جاء الرجل بفأسه، رمى جلبابه على الفرن، وعقد ذيل القميص ثم تفل فى كفيه، ضرب الأرض ضربات قوية، وأسماء على كتف أبيها ترقب الرجل مستمتعة بمشاهدة جديدة، رمى من الحفرة فردة نعل قديم، وسكينة صدئة، قلبها بين يديه، قال:

خسارة.

وركنها بجوار الجلباب، ثم جلب الطوب الأحمر فى مقطف، صفه الرجل فى الحفرة، ورش عليه الرمل، ثم صفق بيده: هاتوا البنت.

أقبلت بها الداية، تحملها بين يديها، ملفوفة فى كفنها، صغيرة بطول ذراع والعمات من خلفها لا يدرين أيحزن أم يفرحن، الحق أن العمات ناقشن الأمر فيما بينهن، وتوصلن إلى أن الميتة لا تستحق الحزن، فهن لم يعاشرنها ثم أن موتها رحمة من الله، فالأم المسكينة لا تقدر على خدمة طفلتين وأسماء طيلة أيام الحمل ضعيفة هزيلة، وإن شاء الله ستفيق وتسمن بعد رحيل الأخرى.

ووقف الجميع حول الحفرة الصغيرة، ونطقت واحدة فجأة كأنها نسيت أمراً - حنسمى البنت إيه؟ سأل الأب: لازم؟ قال الرجل: لازم.

ردت الداية ساخطة: ولا نسمي ولا حاجة، واحنا حنلحدها.

قال الرجل المؤمن الحريص على قدسية الموت: لازم نسميها، ونقوم بالواجب.

قال الأب: نعمل اللى علينا. قالت الداية: نسميها المنسية.

وارتاح الجميع للتسمية، ومد الرجل يده إلى اللفة بحرص، ورقد على ساقه، وحطها بأمان جهة القبلة، قرأت العمات الفاتحة، ثم استدار الرجل ليهيل التراب من كل جانب، فهرعت العمات إلى الداخل يصحن وينفضن جلابيبهن من الغبار، وظل الأب واقفا بينما أسماء متشبثة به ناسية العالم من حولها.

الدخول إلى قرية الجن والمعابد

الفتى الذى يوقظ أبوه الناس بطبلته، شهرا فى العام، ترك المدينة إلى القرية التى تحتضن الرمل والخضرة، الفتى الذى يشحذ أبوه السكاكين للناس هاجر إلى القرية التى تعانق مقابرها المعابد القديمة.

ترك المدينة التى تعبد الواحد الأحد، إلى القرية التى تعبد القط. ضاقت مدينتة بناسها وسياراتها وبضائعها المستوردة، لفظت ناسها إلى البلاد التى تفجرت أرضها بالزيت، لفظتهم إلى البلاد التى تلتهم ماكيناتها الزيت.

أما «هو» الذى لا يملك عقد العمل فقال لأبيه الذى يطبل ويشحذ السكاكين ويلقى الحكم والأمثال: الآن لم يبق من بصرك إلا ما ترى به شبح أمى، فامكثا حتى أعود بالمال الوفير الذى يخرجنا من ظلمات حجرتنا إلى ضوء الشوارع.

وهبط إلى قرية المقابر والمعابد فى عام رماده، قبع بين الأحجار الكبيرة والأعمدة الطويلة يسعى إلى الحقول ليلا يأكل من فولها وبصلها، ويقضى وقته متفكراً: للغريب جزعة فكيف أقتنص الفرصة؟ قلوب الناس مغلقة بقفل الحديد فكيف أفتحها؟

حتى كانت ظهيرة يوم، رأى أهلها يحملون نعشا، تولول من خلفه النسوة، والحزن حط بجناحه الأسود على وجوه الرجال.

ها هى فرصتك، فتقدم وأخرج من ذاكرتك أناشيد الحكيم أبيك، قال الفتى ذلك بينما خرج من مخبئه مندسا فى زحام المشيعين، ضربت الفؤوس بطن الرمل، هبط الرجال إليها يوسدون الجسد الملفوف بالبياض الفائح بالعطر المبارك، ثم تركوا الشيخ وحده يتلو على الجثة الوصايا الأخيرة.. حين هموا بالوقوف اعتلى المصطبة المقابلة، ذكر اسم الله، واستعان به وصلى على سيد الخلق ثم قال: إن الموت علينا حق. الذى عشش على وجهه عنكبوت الحزن، اقترب منه، قبّل ظهر راحته، كما قبّله الرجال، تأبط ذراعه قائلاً:

– كان عزيزا علينا، وغاليا.

– ليس عزيزا على الذى خلقه.

خلفوا الشواهد ترقد تحت عين الشمس، باهتة فى غلالة دخان الأرض المحترقة ودخلوا بين الدور النائمة فى ظلها.

– أهلا بك فى دارى.

وأعدت المائدة بالخير الوفير– ولم يك نحيب النسوة قد كف– نال من كل طبق فكفت المعدة عن النباح، طلب الصلاة، فصلوا وقرأوا الأوردة كاملة غير منقوصة.

– من أى بلد هلّ شيخنا؟

- من بلد تكالب أهلوها فـأكل الكبـيـر لحم الصـغـيـر لحمـاً حلالاً.

- ليتك تقيم إلى الأبد بيننا.

- فلأرحل إلى بلاد تحفظ مجد الله.. وليتبعنى ناسها إلى نوره.

وحين طالبـه بالإقـامـة فـى داره قـال: هذا ليس مكتـوبـاً فـى اللوح، فى دار فـلان ابن فلان (وذكر اسم الرجل المضيف) تكون الإقامة حتى يأمر الرب بأمره.. ولما سأله العمدة عن أمر الرب قال: لم يحن وقت البوح، ولما سأله أن يخطب فى الناس الجمعة. قـال: هى مشـيئة الله من قبل أن تسأل، فتزلزل الكرسى تحت جسد العمدة، حتى كاد أن يسقط.

قال فى أول الرسالة:

لقـد طابت لى المعـيـشـة يا أبى الكريم، وهـا هو الدهر يقف ليعانقنى ويفتح لى أبواب الدنيا وليسامحنى الرب إذا أغضبته فى أمر، أنا لا أطلب غير الرزق الحلال.

فى الصـبـاح زاره أهـل القـرية فى حـجـرتـه المعـزولة، قـدمـوا الهـدايا وقبلوا اليد الطاهرة وطلبوا التوبة والمغـفـرة، لمس بيده على رأس أطفـالهم وربت على المرضى منهم فـصـحـوا ودعـا لهم بالخير.

وفى الليل زار الجاموسة الكسيحة، مسح عليها فقامت، وعقد

مجلسه يلقى الحكم والأناشيد.

وفى يوم الجمعة خطب فى الناس فقال: فى المدن البعيدة الطهارة مطاردة وقتل الأخ أخاه، واختلف الابن مع أبيه، وأقيمت الأسواق تتجر فى لحم البنات، تباع لقوافل غريبة غفلت عنها عين العسس، من هناحيث الطهر لم يزل يرمح فى شوارعكم ولم يزل الله ينظر إليكم بعينه الرحيمة، فليكن الأخ جنب الأخ، والناس سواسية كما قال خير الخلق. وقبل أن يترك المنبر ابتهلوا جماعة، وطلبوا فى توسل أن يحفظهم الرب من غول القوافل ومن ابن الإنسان الذى يشرب دم أخيه فى كأس من ذهب.

عقب صلاة العشاء دخل الدوار، طلب من العمدة احضار رجاله فأقبل شيخ الخفراء والخفراء، ورئيس الخدم والخدم، ناظر الفلاحين والفلاحون، عامل الهاتف، وشيخ القرية.

وطلب من العمدة إحضار المائدة والشموع. واطمأن على الصرة فى جيبه، أظلمت الحجرة بالستر السوداء، وتراقصت واهنة ذبالة الشمعة، أحاط بالمائدة الرجال، يرسم الخوف على وجوههم الصفراء شكل الفزع. حوقل، وبسمل وتشنج، راح فى غيبوبة، حدّث الجن وحدثه الجن، وانتشرت فى الأركان مردة بعيون النار ورماح الموت، أخرج الصرة، تدحرجت الخنفساء السوداء حائرة، تقطرت على ظهرها ذوب الشمعة، غرس على

ظهرها الشمعة، تلجمت بحملها، لسعتها القطرة، سارت بلا اتجاه ثم توقفت، لسعتها القطرة فسارت، والخوف يرسم على الوجوه الصفراء شكل الرعب.

قال:

– يقول الجن إبن نار الأرض: من فعل الفعلة، ينام الشلل فى نصف جسده، تحرك وجه الخفير من بقعة النور إلى الظل، مكث الشيخ في غيبوبته يحادث الأطياف، عاد الوجه خلف ظهر الشيخ، مد يده تحت المائدة فى خطفة، أدرك الشيخ فتهلل بالأناشيد الغامضة، والتراتيل، قال: يقول الجن القادر سأعيد المال لكن لليتامى والمساكين وابن السبيل.

تلعثم العمدة. وقال:

– هى ارادة الله كما هى ارادتك.

نهض الشيخ بعد أن أطفأ الشموع، وطلب رفع الستر التى تحجب النور، حيث كانت الربطة بالمال والمصاغ.

كتب فى أول الرسالة:

أبى العزيز.. ها قد ضاقت حيلتى، وانتهت بى الإقامة، العجز يلقى علىَّ أرديته الثقيلة، إلى هذا الحد لا أستطيع التجاوز، قضيت عمرك يا أبى رفيق الليل تنثر على عباءته أناشيدك المباركة، وكنت أنا جوارك صبيا يستلهم روحك ويردد فى جنبات نفسه كلماتك، فكانت لى عونا فى الزمن الصعب، أشعر أننى لا استطيع السير في الطريق إلى النهاية، يكفينى العبث بسذاجة الناس، جئت لهذه القرية لأحمل من خيرها الجم إليك وإلى أمى، لكن هيهات أقعدونى بحلمهم المعجز، لا أستطيع الاستمرار

انتظرني فسأعود لأوقظ الناس بطبلتك شهرا في العام، ولأشحذ لهم سكاكينهم الصدئة طول العام.

وختم الرسالة: ليتني استطيع أن اعيد إلى عينيك النور، سلم على أمي الطاهرة، لن يقربني الشر وببركات دعواتها أعيش.

استيقظوا حينما غرد نور الشمس على أطراف الشجر، ودخل عليهم من طاقات دورهم المعتمة، انفلتوا من بين قبضة النوم المسترخية، بللوا الوجوه المستغرقة في حلم الليل بالماء الجاري في القنوات، في الوقت الذي ذهبت نساؤهم إلى الحظائر بآنية اللبن.

على الموائد تجمعوا يطردون الجوع الراقد منذ البارحة، ركبوا المطايا، وسحبوا الماشية إلى الحقول القريبة والبعيدة.

لكن نفرا منهم انحرف إلى الحجرة المعزولة، كانت معهم الدابة المريضة والأطفال المرضى، والأم التي طال غياب ابنها في المدن وراء البحار، والمرأة التي تريد زوجها خالصاً من دون الضرة، والشاب الذي يتمنى أن يلين قلب الأب الذي حرمه حبيبته.

استندوا جميعا إلى ظل الجدار وانتظروا أن يفتح الباب.

استندوا إلى شمس الضحي وانتظروا أن يفتح الباب.

استندوا إلى ظل المغيب وانتظروا أن يفتح الباب.

ويقال إنهم ما زالوا -حتى الآن- مصلوبين على الجدار منتظرين أن يفتح الباب.

الضيف

- ١ -

لما طرق علينا الباب. قامت أختى وفتحت له، وأمى جاءت من أخر الدار، مسحت يدها المبلولة فى طرف طرحتها، وسلمت عليه، فتحت باب حجرة الجلوس، وأدخلته، ثم طلبت منى أن أصعد الكنبة لأفتح الشباك المطل على الحوش، غمر الحجرة ضوء شديد، وبقعة الشمس سقطت على الصورتين المعلقتين على الجدار.

سألته عن أمه وأخوته البنات قال: الحمد لله.

وأختى كانت قد جرت على الطاحونة، لتنادى على أبى، الذى جاء على وجهه وهدومه غبار الدقيق، سلم عليه بحرارة، وسأله عن أبيه والجماعة، أراد أبى أن يجلس بجواره على الكنبة، فزجرته أمى «هدومك وسخة.. قم غيرها.» وأشارت إليه بعينها، تهامسا فى الردهة، ثم أعطانى أبى نقودا لأشترى كوكاكولا، وعاد ليرحب بالضيف «أهلا وسهلا.. شرفت.»

لما عدت، وجدت أمى وأختى فوق السطح، وسمعت صوت

الدجاج يكاكي، ودبدبات الأقدام على السقف.

دخلت حجرة الجلوس حاملاً الصينية، وكنت حريصا على الزجاجة الطويلة المنتصبة، حتى لا تنقلب على الأرض، ودخلت من الباب بجنب. كان أبى جالسا بجواره بهدومه المتسخة، قام ليأخذ منى الصينية المرتعشة، وقدمها للضيف.

كان وجهه لامعاً، وحذاؤه كان يبرق في قدميه، ولباسه فاخراً نظيفاً، وشعره الناعم المنسق ينام بنظام على رأسه.

قلت لنفسي: هكذا أبناء المدن.

وتمنيت أن أكون مثله، وأكدت أننى سأطلب من أبى قميصاً وبنطلوناً كاللذين يلبسهما الضيف، وعزمت أن أغسل شعرى كل صباح.

استأذن أبى ليبص على الطاحونة، وقال إنه سوف يعود حالاً، وطلب منى أن أجالس الضيف.

كنت أريد أن يحادثنى عن المدرسة لأقول له إننى (الآلفة) وان اسمى مكتوب على لوحة معلقة على جدار الفصل وإلى جواره: رائد الفصل، وكنت أود أن أحضر له كراريسى، لأريه نمر المدرسة، ولأقول له إننى غاوى رسم، ولى رسوم كثيرة معلقة على حوائط المدرسة، ولكنه فقط سألنى عن سنى، ثم فاجأنى بالسؤال عن نسوان بلدنا.

فحكيت له عن الولد (على) الذى قام بالليل، وتسحب من

السرير، يضاجع بنت خاله التى تنام عندهم، وكيف أنه حين خلع سروالها بالت عليه. وقلت له إننى.. أنا نفسى، أنام مع نسوة كثيرات من الجارات. وأننى نمت مع (أم محمد) على سريرها المسدول عليه ناموسية، وهى التى طلبت ذلك، لأن زوجها سهران يروى أرض القطن.

وسألنى عما إذا كنت قادرا على إحضار (أم محمد) هنا فى دارنا، فكذبت، وأخبرته أنها ليست بدارها الآن، فقد ذهبت إلى دار أبيها منذ الفجر. لما عاد أبى مرة أخرى، رحب به، وقال: زارنا سيدنا النبى، وسأله: الوالد بخير؟

قال: الحمد لله.. كلهم تمام. وطلب الضيف أن يقوم برحلة إلى الغيط، يرى الزرع، ويقضى يوما فى الشمس.. فاستدار أبى إلىّ وقال: خذ الحمارة.. وفسح الأستاذ، على أن تعودوا على الغداء.

عبرنا الدار إلى الحوش، رفعت البردعة من على الفرن، وتحاشيت الدجاجتين المذبوحتين ترفرفان وتنثران الدم حولهما.

سحبت الحمارة من الزريبة المظلمة، المسقوفة بالجريد والقش، وثبت البردعة على ظهرها، وركب الضيف، وركبت أنا أمامه، لنخرج من البلد، إلى طريق المصرف الطويل.

– ٢ –

كانت الأرض التى نزرعها تمتد من وراء دور العزبة إلى

أرض الإصلاح البعيدة، على رأسها ساقية وجرن يحوطة سور مشقق، ومصلى تنام عليه الشجرة العجوز، وعلى جانب الجرن، الدار ببابها القديم، ونوافذها المخلعة، فى جذع الشجرة عقدت مقودة الحمارة، واتجهت إلى الدار، قلت له: هذه الدار عشنا فيها عامين.

رفعت القفل الأسود الثقيل، ودخلنا الردهة المسقوفة بالسماء. قلت له: نستريح قليلاً.. بعدها نتجول فى الزرع.

وقلت: كانت الدار مسقوفة، سقفها كان مرفوعاً على جذع شجرة كبير، وكنا نسمع مدة العامين صوت «القراضة» فى قلب الجذع، وقد قال أبى يومها، إنها القراضة الملعونة، سنرفع الجذع الكبير، ونبدله بقضيب حديد، ولكن الجذع لم يمهلنا، قمنا ذات صبح نفتح باب غرفة النوم، فلم ينفتح، كان السقف كله قد ملأ الردهة، ولم نشعر بسقوطه، ومن ستر الله، أن «السهارة» كانت مشتعلة طول الليل، لم تصل نارها إلى السقف، لأن سقوطه أطفأها.

لو اشتعلت، كنا متنا وسط النار، بعدها حلفت أمى ألا تعيش فى هذه الدار أبدا، وقالت نضيع أولادنا هدراً، وألححت أنا وأختى على أبى حتى وافق على ترك هذه الدار، لنعود إلى البلد.

تركنى الضيف وراح ينظر داخل الحجرات.

قلت له: أما هذه فكانت حجرة الجلوس، فرشتها أمى بثلاث

كنبات، خاصة وأن لها باباً خارجياً، كان بإمكاننا استقبال الضيوف دون أن يدخلوا من الباب الكبير.

وكنت أريد أن أحكى له عن أيامى فيها، ولكنه سد فمي بكفه، ولما راح ينظر فى الحجرة التالية، قلت: أما هذه الحجرة فكان بها فرن، وهذه آثاره كما ترى، كنا نقضى فيها الشتاء، كانت أمى كل مغرب توقد الفرن، وتسد منافذ الحجرة، لنتجمع كلنا فوق قبوه، وكان أبى يستقبل.. أدار إلىّ وجهه المكشر وقال: أنت تتكلم كثيراً. فتصلبت فى مكانى، وتركته يجول فى باقى الحجرات، حتى انتهى إلى الزريبة الممتدة بعرض الدار، ثم خرج إلى الجرن.. وقف على كومة التراب يبص على الأرض من تحته، خرجت إليه، وسألته:نمشى فى الزرع؟

كنت أرغب فى تعريفه بأنواع النبات المزروع، وأحكى له عن جيران الأرض وعن أيام الدودة، وسهراتى فى الخص أيام زراعة الخيار والطماطم، وعن الذئب الذى يسعى فى الحقول ليلاً ليبث الرعب فى قلوب الرجال، وكنت أستطيع أن أقول له إننى لا أخاف الذئب، وكنت أود أن أكلمه عن ذئاب كثيرة، سمعت بها من الفلاحين.

نزل عن كومة التراب، وأمسك كفى، سحبنى إلى مدار الساقة، وسألنى عن دور العزبة التى تقع تحت بصرنا.. فذكرت له أسماء أصحاب الدور، سألنى عن أعمالهم، فقلت له:كلهم

فلاحون ما عدا (عبد العليم) فهو متطوع فى الجيش.. وسألنى: هل يسكن هنا؟

قلت: له حجرة فى دار أبيه الكبيرة. وسألنى: متزوج؟ قلت: زوجته من المدينة، تلبس الروب المزركش بالورد الكبير، وتعقص شعرها تحت منديل مزين بالترتر، وهى خياطة تخيط الهدوم لنسوة العزبة، ولسانها لهجة لا تعرفها النسوان هنا.

استند على كتفى وقال: ولكنها لا تظهر..

قلت: ربما تعمل داخل الدار فهى لا تذهب إلى الغيط.. وسألنى عن باقى النسوة، فذكرتهن جميعاً، خبط بطنى بلطف، وسألنى عن أجمل واحدة فيهن، قلت: (وهيبة) البدوية، بنت (سليم الغرباوى) وهى رغم جمالها لم تتزوج، فالبدو لا يزوجون بناتهم لفلاحين، وأمها (عالية) لها اتصال بالجن وتقدر تجوزها أحسن راجل فى الدنيا، وهى تقول إنها لن تزوج (وهيبة) إلا لموظف من أبناء البدو يسكن المدن، ولكن كل الفلاحين هنا يحبون (وهيبة) ويرغبونها زوجة، وهى تدل عليهم، تسرح بغنماتها مع أبيها من الصبح حتى المغرب ولا تكلم الرجل الغريب.

نزلنا عن مدار الساقية، وجلسنا فوق سور الجرن، وسألنى: لكن فى العامين الذين عشتهما هنا.. أكيد سمعت عن علاقات خفية، فحكيت له عن زوجة شيخ العزبة، وعلاقتها ب (أبو طبيخ) وقلت له هى امرأة نحيلة سوداء جافة، تعمل خبازة، لكنها تهتم

بمظهرها، فهى تعقد منديلها على جنب، لا تفارق عينها الكحلة، وتقول أمى إنها تتكلم باليد والحاجب، وشيخ العزبة عجوز أعور لا يكف عن الكلام، يفض النزاعات بين الفلاحين، ويصلح بين الرجل وامرأته، ويدخل فى كل مشكلة، فهو دائم التجوال وواجباته كلها فى خارج داره، ويشرف على الأنفار أيام الدودة، يسجل محاضر المخالفات للفلاحين، و (أبو طبيخ) صعيدى حل بالعزبة ، له زوجة بيضاء كالشمع وبنات بيض يعملن معه فى حقله الضيق على شريط القطار، وهو مهتم بالنحل، له خلايا، يخرج منها العسل كل ربيع، وهو طويل فارع قوى، صوته خشن يهز العزبة حين ينادى على زوجه أو بناته حين يكن بآخر الغيط.

وقد سمعت من الناس أنها تطبخ له الحمام كل ظهر، وتنسحب خفية من وراء الدور، ولا تمشى فى طريق، بل تخترق الزرع حتى تصل إليه فى أرضه وينامان معاً فى خص القش، تحت شريط القطار. وسمعت أنهم عثروا عليها مرة فى حقل الذرة، وقد خطفوا سروالها، ولكن شيخ العزبة زمجر فى وجه الرجال، وسب أمهاتهم، وقال إنهم يشنعون على زوجته، لأنها برقبة نسوانهم. وحكيت عن (وحيدة) و (مكاوى) وكيف عثروا عليهما يوماً عريانين فى القناة الجافة وسط الزرع، ولما سألنى عن (وحيدة) قلت له هى زوجة (مكاوى).

فقال: اسكت.. أنت كثير الكلام.

وسألني: نقدر نزور شيخ العزبة؟

قلت: لو كان أبي معنا.

وقلت: هو صديق أبي، يزوره في الطاحونة، وكثيرا ما يأتي معه ساعة الغداء، ولما كنا نسكن في الدار، كان يقضي معنا ليالي الشتاء، فوق الفرن، ويقص علينا حكايات كثيرة.

قال: اسكت.

فسكت، أدار لي ظهره، ثم قام يمشي في الجرن، وقف ينظر إلى الدور.

وسألته: نتجول في الزرع؟ قال: اسكت.

وفجأة عاد إليّ وسأل: لم ربطت الحمارة خارج الدار؟ وطلب أن أربطها على مذود الزريبة، سحبت الحمارة إلى الردهة، ورفعت عنها البردعة شددت باب الزريبة المرقع بقطع الخشب، وربطتها على مذودها الفارغ، وعدت إليه. قال: ابق هنا.

-٣-

قضى أبي صلاة العشاء بالدار، افترش المصلى أمامنا، وكنت أنا والضيف جالسين ننظر إليه، ونسمع تراتيله، لما ختم الصلاة، وسلم ذات اليمين وذات اليسار، قام يلم المصلى، قال له الضيف «حرماً» فرد عليه «جمعاً.. إن شاء الله.» ونادى على أمي، لتعد العشاء.. وجاء صوتها من الداخل: «جاهز» ثم دخلت علينا أختي بالصينية، بعد أن فتحت الضلفتين ووضعت الصينية

على منضـدة بوسط الحـجـرة، وعـادت بالقلة فى طبق، حـملق الضيف فـى وجهها، فارتعشت عيناها، وسألت أبى إن كان يريد شيئاً، فـأمرهـا أن تجعل أذنها معنا، قد نحـتـاجـها وأشار إلى الضيف: تفضل.

كان على الصينية طبق قشدة، وجبن وطعمية وحلاوة طحينية وخبـز محمص، شمر أبى كمه وردد البسملة بهمس، ورددها الضيف بالصوت العالى، بعد العشاء، شربنا الشاى السخن، وقام أبى لينام، استأذن من الضيف وقال: أنتم شباب تقدرون على السهر، ودخل حجرته بوسط الدار، كذلك دخلت أمى وأختى الحجرة المواجهة، وأغلقتا الباب، وبقيت أنا والضيف فى حجرة الجلوس صامتين، لا نتكلم، حتى طلب النوم، صحبته إلى حجرتى، فخلع قميصه، وارتدى جلباب أبى الفضفاض، وسحب البنطلون من أسفل، أطفأ النور وتمدد إلى جوارى، تنهد براحة، وسألنى: كيف تقضى ليلتك؟ فأجبته: فى المقهى المفتوحة أبوابه على المزلقان، فهناك نشرب الشاى، ونتفرج على فيلم التلفزيون، ونتسلى بالسودانى واللب، أما الرجال فهم يتحلقون إلى جوارنا، يلعبون الطاولة والدومينو، ويدخنون الحشيش، فى أيام الدراسة أذاكر، ولا أسهر فى المقهى إلا ليلة الجمعة، دفعنى بيده حتى صدمت بالحائط، وقال: نم.. نم. فنمت، وكنت لا أريد النوم.

فى صمت الليل انتبهت من نومى على اليد المتوترة العرقانة تفك أزرار البيجامة وتجول فوق قلبى المنتفض.

ظل الموت

لما عاد الأبناء من الجبانة تكاثروا حولها وقالوا: أنت منذ اليوم معنا في دار أخيك. وقالت أمهم: من ريحة المرحوم. ولما تأملوا وجهها المغضن، اكتشفوا في خطوطه وجه الأب الذي واروه التراب.

عند أذان المغرب، أضاءوا حجرة الأب، لتنير للروح التي تزور الأحبة كل مساء. وطلبوا من الشيخ أن يتلو آيات الله، لتأنس الروح، وتبارك أهل الدار. بعد أذان العشاء قالوا للعمة العجوز: فراش أخيك فراشك.

متواليات العزاء

وكانت -في طلعة النهار- قد أقبلت على ظهر الحمارة السوداء الضامرة. مرت بين الرجال القاعدين على الكراسي المرصوصة بجوار النعش بعد أن قطعت الشارع الطويل يسحبها ابنها الكبير.

عند باب الدار، فردت كفها على الجدار، فقام رجل وساعدها: «البقية في حياتك»، وفتح لها الباب حيث واجهت السواد المكدس بالردهة، وراحت تستند على حوائط الحجرات بيد، وبالأخرى جمعت طرف الشال حول وجهها.

النسوة المعزيات أفسحن لها طريقا ضيقا بين ظهورهن، وبالنظر الشحيح لمحت على السرير -تحت الملاءة البيضاء- الجسد النحيل الساكن المسدول عليه البياض، تتجسد تحته تكويرة الرأس وانتصابة القدمين. والسرير كان بعرض الحجرة ليصبح الرأس جهة القبلة، والنافذة -فوق السرير- مغلقة بالشيش والزجاج لتحمى الراقد من عين النور.

على عتبة الحجرة كادت تسقط من الوهن، غير أنها فردت ذراعيها فجأة فاصطدمتا بالضلفتين، لتخبطا الحائط على الجانبين بقوة، قامت امرأة لتجلسها عند القدمين المنتصبتين.

حين ارتاحت على الأرض، تنهدت إذ أنها بذلت الجهد الكبير، وهمهمت النسوة فيما بينهن: «ما كان لها أن تجيء» وقلن أيضا «العظمة كبرت».. وهمست واحده متكومة على نفسها: «أكبر منه بأربع سنوات»

حين مسحت الدمعتين اللتين انحدرتا فى شقوق الوجه، رأت فى مرآة الدولاب وجهها وعمود السرير وساق الراقد حتى حدود العورة المطفأة.

كانت أحب الأخوات إليه. مات زوجها من عشرين سنة، ولم ينقطع هو عن زيارتها فى العيدين والمواسم، يزورها فى دار ابنها البعيدة. وكنت تسعد بحضوره، يطل عليها من الباب شامخا بعمامته الزاهية وجلبابه السابغ الفضفاض. ويمد ابنها كفه المجذوم -جف حتى صار كجذع شجرة سنط ميتة- ويحييه

كما ينبغى للرجل المتواضع أن يحيى الرجل العالى القدر.

يفرد الحصير اللامع الملموم فى الركن، يهزه هزتين، يسقط الغبار المنتشر فى ثنايا السمار، ويبسطه على الأرض، ويحلف عليه ألا يجلس حتى ينيم المسند على الحصير، ويمد خلف ظهره الوسادة المكسوة بالكيس الأبيض المطرز.

هكذا يبدأ عندها العيد، وينتهى حين يفتح المحفظة البنية الكالحة ويختار لها الجنيه من بين الورقات الكثيرة، تدسه فى كيس القماش المزموم بخيط يلف على رقبتها.

وها هو مستكين للغطاء المفرود عليه. وها هو يطيع الرجال الذين رفعوه على سريره إلى المغسلة التى امتدت بطول الحجرة. أما هى فقد قبعت بين النسوة ترقب الداخل والخارج. يضيع أنينها فى العويل المرتفع، تراه لفة بيضاء نحيلة بين أذرع الرجال القوية، مندفعة إلى خارج الدار، لتغطس فى غطاء النعش الممتد أمام الباب، تتدحرج بين السيقان ممسكة بالشاش لتهتف بالصوت الباكى: «بالسلامة يا اخويه».. ثم ترتكن على حائط الردهة منهارة، فى دار واسعة فارغة احتفظت أركانها بصريخ النسوة المتشبث.

كانت الضلفتان المفتوحتان تظهران السرير النائم على جنبه، وبقعة الماء، وقطع القماش الأبيض تتناثر حولها نتف القطن المبتل.

حدثت نفسها الحزينة، قالت: ها قد رحل زوج المرأتين وابو

العشرة. الشاطر.. قضى عمره الطويل يجمع ويلملم الدور والطين والطواحين، وما خرج إلا بكفنه.. بينما أنا المسكينة أقعد فى داره المفتوحة الأبواب خائفة ووحيدة.

يوم الثالث

قعدت بين النسوة لا تنبس. شربت القهوة السادة.. وتغدت بين ابناء أخيها

الخميس الكبير

كانت وحدها على الحصير بالردهة. لما عادوا إلى المضيفة آخر الليل ودخلوا حجرة الكنب، بسمعها القليل عرفت أنهم يتقاسمون مال أبيهم. بعد مصاريف الجنازة والدفن والخميس. جعلوا للذكر مثل حظ الأنثيين، والثمن للأم الكبيرة، وادخروا مبلغا للأربعين. ولما تذكروا الآية وتذكروها أرادوا ألا يغضبوا الله، فمد كبيرهم يده بورقة حمراء، ظلت فى كفها حتى نامت فى حجرة أخيها المظلمة غير راضية.

فى الأربعين

قضت النهار بين النسوة لا يكلمها أحد. وحصلت على غدائها قرب آذان المغرب، بينما رأت البنات –بعقب الظهر– يختفين فى الحجرة بآخر الدار، ليوزعن فيما بينهن أنصبة اللحم..

وسمعتهن يهمسن ويكتمن الضحكات.

فى أول الليل حين طرق ابنها الباب، لم يمانع الأولاد ولا البنات.. غير أن الأم الكبيرة قالت على سبيل الواجب: «دعها بيننا تؤانسنا، والدار دار أولاد أخيها» . لكنها شدت يده ليرفعها على الحمارة السوداء الضامرة.. وعادت.

ايام الصبى و العانس

الظهيرة:

(أ)

الصبى الصغير جلس بين النسوة تحت شجرة السنط العالية فى هذه الظهيرة التى هجعت فيها الكلاب تلهث على بقع الماء الرطبة.

النسوة كن يثرثرن، ويقطفن أوراق الملوخية الخضراء من عيدانها، يكومنها فى الغربال..

نظر إليها تمضغ العود الريان الخالى من الورق، تتمدد خلف ظهرها ضفيرتان ثعبانيتان تنبت جذورهما تحت منديلها الأبيض الملون بورد صغير.. أحمر وأصفر. تتدفق قناة صدرها السمين بين ضفتى الثديين، بعد أن تنقطع الرجل عن الشارع، وتغلق الأبواب على ظل الدور الرطبة، تبقى السنطة فارهة ووحيدة، تدارى نفسها بظلها السخى.

تنهض أمه من بين النسوة معلنة «أن العفاريت قد قيلت.. هلا قيلت» يصمت هو العارف أنها ستعارضها «ليرقد معى أنا الوحيدة.»

فتمشى النشوة فى فوضى دمه الحار.

تذهب صاحبة الملوخية بغربالها .

ينفضن ثيابهن لتسقط العيدان على الأرض تنقنق فيها خراف الجيران وجديانهم تغلق من خلفها بابها ذا الصوت الحزين الملول، الصبى الصغير فى اثرها فى غرفتها التى تتسع للحصير والدولاب الذى تفوح منه رائحة الدسم تعلق الشاش الأسود على النافذة المضيئة.

يجلس فى الركن على الوسادة الملوثة بدم البراغيث، يرقبها وهى تطرد الذباب من الباب إلى الردهة، ليتكوم على جدران الزير وحصير الجبن.

بعصفورة الخشب الكبيرة تغلق الغرفة، يلحظ (محمد الجدع) التى خطها يوما بطباشير المدرسة.

تتمدد متأوهة من الركبة والمفاصل، تعطيه ظهرها العالى، وتأمره بالنوم الساكن فيرقد دون صوت.

(ب)

يا هذا الصبى.. أعرف أنك لا تنام، تظل عيناك مفتوحتين على صورة الرجل البدوى ذى الشارب النابت من اللحية الكثة.

قالت لأمك يوما: ابتعتها من السوق بعشرة قروش. قال البائع: إنه الإمام على.

أنت الآن فى انتظار يدها التى تسحبها إلى جلبابك، فسروالك، فموضع بين فخذيك يوقظ النشوة النائمة فى جسمك

الصفير.

ها هى -بالفعل- يدها تصب النار بين فخذيك، بعد أن تفرك أصابعها لبعض الوقت، ستلتصق أنت بها، وتمد بالتالى يدك إلى جلبابها الثقيل تسحبه بنعومة، حتى تلمس الخشونة المبهرة.حينئذ تكون هى فى الاستسلام المطلق فما عليك إلا تعبث فى الجسد المنساب بأفخاذه المرتفعة الممتلئة بالشحم، بالثديين الراقدين ككلبين أليفين، والسرة -فوق الهضبة- يحلولسبابتك الدوران فيها. تقوم بكل هذا.. فقط لا تدع لعينيك تأخذانك إلى عينيها المسرورتين تحت كوعها.

وفى تمددك على الهضبة العالية، اياك والسقوط عند الإهتزازة المزلزلة. تحوط بيديك الدقيقتين الخصر الذى لا نهاية له، وتدع لنفسك المتعة الطفولية التى لا يسبقها شىء، ولا تنتهى إلى شىء،

وتحمل ضغطها المحموم الذى لا تقابله بفعل.

وحين تزفر بتنهيدتها الحارة ينبغى أن تهبط من تلقاء نفسك وإلا أسقطتك إلى جوارها كعلقة ميتة.

وإن حاولت مرة أخرى ستضربك بكوعها فى جنبك باستسلام حتى يبرد جسمك.

ولا تطل النظر فى وجه الشيخ ذى اللحية لأنه سيرعبك.. لا تفكر كثيرا فى السيف الذى سيحضره يوما ليقطع رقبتك عقابا لك، فيسيل دمك ساخنا على صدرها، أو فى أمك التى تكون قد

دخلت بطريقة ما، وتجدك فى نومتك الملهوفة، فتصفع وجهك أو تكوى جلدك بالنار.

ولا فى السرحين يرفع عنه الشاش الأسود لعيون صبية الشارع عبر قضبان النافذة فترجم بالحجارة.

سيذهب ذهنك فقط فى محاولة لتذكر المرة الأولى، فلن تجدها.

(هل تتذكر رضاعتك من ثدى أمك؟ وهل تتذكر البول الذى كنت تدره فى فطامك؟)

هكا وجدت نفسك معها فى ليلة من الليالى، أو ذات قيلولة كالتى تضطجع فيها الآن، كما وجدت جسمك الذى تكون بلبن أمك، أو ملامحك التى ورثتها عن آبائك وأجدادك.

وإن كنت تذكر أمها التى ماتت، العجوز بشعرها الأبيض المشوب بصفرة كصفرة الدخان على شارب جدك.

وتكر يوم أن حملتها الخشبة إلى المقبرة البعيدة.

يومها قالت أمك: المسكينة ستعيش وحيدة..

بعدها كان من السهل على ذهنك الصغير ألا يفاجأ حين يعثر على جسمك ممددا على أرض غرفتها، وتعلقت بحصيرها الذى ينطبع على لحمك أكثر من تعلقك بسرير أمك.

وتندهش (لماذا هذه المرأة بلا رجل؟ أليست امرأة مثل أمك؟ فلماذا لا يكون لها رجل كأبيك؟)

وكانت تقول للنسوة ولأمك: هو عريسى.

وكنت تخفض رأسك خجلاً..أو تفر بعيدا .. لأنك تتذكر فعلة الأمس وتعجب من هذه المرأة الملفوفة بالطرحة البيضاء، والتى يحترمها الناس، ويقولون عنها:عين الكمال والعقل.

وتكون غير ذلك معك فترفع جلبابها حتى الرقبة عن جسد شمعى يحتاج منك لألف فعل، وتقف حياله دون فعل، بينما هى حين تلقى بك على هضابها المرتفعة، تثور وتنتفض.

الظهيرة مرة أخرى :

(أ)

.. وقف عند الجدار، يملأ المرآة بالشمس، يبعث ضوءها هناك إلى النافذة المظلمة، وفتاته بعذوبة أنوثتها المبكرة (هناك) تحاور الأشعة عينيها وتدغدغ البسمة وجهها المنور «آه.. لو كنت منك قريبا». والنسوة مجتمعات تحت السنطة تبص عليهن الشمس من بين الورق الداكن والشوك، تلوك ألسنتهن السير المكررة.

هو سعيد بخفقة القلب النشوان.. هو يذكر لحظة الاختلاجة الأولى. فى يوم كان الشتاء قد ملأ الشوارع بالطين، كانت جالسة على عتبة بابها. فاندفع كل دم القلب إلى وجهه، وتاهت منه خطاه. فى النوم جاءته خفيفة شفافة بثياب بيضاء هفهافة، ووجه باسم بنداء مستحيل، قبلته وقالت: منذ اليوم أنت لى.

وارتمى فى حضن الشوك الملتهب، فى النهار كتب الرسالة

المدعمة بالسهام المغروسة في القلوب، تحوم حولها حمائم وعصافير، ونثر حولها كثيرا من الزهر وأوراق الشجر المخضرة.

(ب)

وها أنت مصلوب في الهجيرة، لا تملك غير النظر إليها من بعيد.. لا تملك أن تدخل الطاقية في العب أو تلعب « يا بونا ضربونا».

ولا تملك أن تدخل حلقة النسوة المجتمعات فحلقاتهن صارت سرا من الأسرار، حرام عليك كشفها طالما عرفت كيف تختلى بنفسك مع إحداهن على سرير الليل والأحلام. هي الآن عالمك، تطل عليك من الكتاب إذا فتحته، وتتمدد جنبك في النوم إذا نمت، فترى هذه المدينة الهادئة التي يرتفع بها بيتك شاهقا، مزين بأزهار الحديقة التي تغرد فيها أطيار بأجنحة حمراء.. وخضراء، تهفهف على غصون أشجارها ستائر غرفتك المزخرفة وأنت بين جدرانها في حضن الحبيبة، وقد صارت أنثى كاملة بصدر ممتلىء، وقد مياس تنزع نفسك المحترقة بالقبل التي لا تنتهي على سرير غامض في الليونة أغمض جفنيك حين تلمح الصورة البشعة (الحصير والوسادة الملوثة بدم البراغيث والشيخ الذي يهدد بالسيف). أنت الآن حر، من العجوز الشبقة، وأمك والبدوي.

وهناك أيها الفتى الشرود يمكنك أن تقول أحبك.

فترد عليك برقة: يا حبيبى.

والآن حان لك أن تذهب.. فالشمس حارة وقوية، والنسوة قد أنهين سيرهن المعادة وعدن إلى رطوبة الدور المسقوفة، اياك أن تحن للعانس، أو يغريك منديلها المزين بالورد، فتسحبك كذكر البط إلى غرفتها، أنت قلت كلمتك: لقد صرت رجلا.. فالعبى مع فئران دارك.

وها هى تطل عليك من بابها الموارب.

أعطها ظهرك، واخلفها في مقبرتها المظلمة والذباب والجسد المنصهر بالرغبة. فقد حان موعد الظل على سطح دارك، لتروى نبتتك الخضراء النامية باستحياء، فقد تشققت أرض انائها العطشى، واصحب معك كتابك، ستكون هى هناك فى نافذتها البعيدة، ترعاك بعيونها الحانية، فابسم لها إن سمحت لك قدرتك أو فاكتب الرسائل حتى تأتى لحظة القدرة.



الملاك

- ١ -

تحدث الناس عن الفتى الذى جاء يطلب « كريمة» من أبيها قالوا: هو ابن تاجر سمك، يسكن الحى الواقع على ضفة النهر، وقال الكبار: جده لم يدخل الجامع إلا بعد أن نحل الأفيون بدنه، وضحكوا حينما قالوا: كان يصرخ بالآه ويزعق فى وجه الله -فى الركعة والسجدة- من ألم المفاصل، ويقضى صلاته فى كحة مسلولة لا تنقطع.

أما عن أبيه فقد تحدث الناس عن سحاحيره وعربته الكارو التى يدور بها فى الأسواق، يبيع أمشاط البلطى والبياض، وعن بصبصته للنسوة الشاريات، وضحكوا حتى كحوا حين ذكروا رائحة داره الزفرة التى يشمها سابع جار.

وفتية الكفر دار بينهم الحديث عن العريس، أكدوا أنهم يعرفونه منذ أن كان ينعّم تراب الشارع ببچامته المكوية، واكد واحد منهم أنه يعرف ما أخفاه ابن الحاج الذى ضاجعه فى عباءة أبيه الجوخ، وأصر أن هذا الداء ما زال فيه حتى بعد أن تطوع باعيابيته فى الجيش. وأنهم لو أرادوا مضاجعته لأحضره إليهم هذا المساء.

وأكدوا جميعا أن «كريمة» الجميلة سترفض أن تربط نفسها

بالزفارة. والذين حضروا من الجيران قراءة الفاتحة أقروا أن البنت هددت بدلق الجاز على جسدها، أما أمها فقد صرخت فى وجه أبيها الذى أفسد الكبر عقله. لكنه صفعها على وجهها وقال: يا امـرأة تريدين أن تسـودى وجـهى، أنا رجل وقلت كلمـتى للرجال، أم تودين ابدال شالك بعمامتى هذه؟

وتجمع أهل الكفر -ليلة الجمعة- يشاهدون فرح «كريمة».. كانت فى طرحتها البيضاء، بين الكوشة، تحاول أن تبتسم، وعرفوا أنه سينقلها الليلة إلى داره على الطرف الآخر، وبكت النسوة والرجال حينما ودعوا السيارة التى أزعجت الكفر بزماراتها القوية المتتابعة، ولما أدخلها غرفته فى الطابق الثانى قال: هذه غرفتك، وأنت منذ الليلة على سريرها وبين كنباتها لا تفتحى نافذة ولا تطلى من شرفة، ودق المسامير فى ألواح مدها على هيئة صليب.

-٢-

تذكروا يوم أن اشتروا الدار لأبيها بعد أن زف إلى البنت التى اختارها سمراء نحيلة من القرية البعيدة، بعد عام استدعوا -عند الفجر- القابلة العجوز، لتستقبل البنت التى ملأت أركان الكفر صراخا، جاءت كملاك أبيض سمين رباه الرب فى أحشاء أم سمراء نحيلة. فى اليوم السابع غرسوا فى صينية الحناء الشموع الكثيرة، وسموا كل شمعة باسم، ماتت نارها جميعا ما

عدا الأخيرة، وكانت باسم «كريمة». فقال: فلتكن «كريمة».. مكرمة من العبد ومن الرب بإذن الله.

علقت لها أمها خمسة وخميسة في خصلة الشعر، كما علقت الأحجبة والقروش القديمة على صدرها، وتركتها تحبو فى الشارع مع بناتهم تأكل من ترابه وتعجن فى طينه، وأطلقتها تجرى فى الشارع ويجرى معها شعرها المقصوص على هيئة ذيل حصان، فيتقافز على خديها قرطان بفصين لامعين، وعلى صدرها تهتز ثمرتان ناضجتان مشتاقتان للشمس والهواء.

وتذكر فتية الكفر يوم أن رأوها فحرم عليهم النوم، أحبوا طلعة الفجر، وشقشقة العصافير، ولما يحل الليل كانت روحها الشفافة تتوزع فى كل دار، فيجدها الفتى الغافى فى الفراش ممددة فى حضنه تحت الغطاء تعطره بأنفاسها، فيهمس إليها بكلام أكثر حرارة مما قاله بطل الفيلم للفتاة الباسقة ذات الشعر القصير والسروال الضيق.

أما الفتى اليقظان فكان يجدها أمامه بين سطور الكتاب تبتسم له وتدعوه للقبلة المسكرة، فيشدو بأبيات الشعر المحفوظة. أو يقوم فيخط الرسالة المدعمة بأجمل أغنية رددها المذياع ويرسم على حواف الرسالة الزهور الملونة، وكانوا يخرجون مع نور الصبح إلى المزارع يطالعون كتب المدرسة، يحفرون على شجر الحقول القلوب المرشوقة بالسهام، ويكتبون بالمسامير اسمها بخط يجهدون أن يكون جميلا كصاحبته.

حتى أن الفلاحين من ابناء الكفر حفروا مثلهم -بأظافر اليد- نفس القلوب والسهام، ورددوا في سيرهم خلف الجمال والحمير الأغاني المشتاقة للحنة والشال القطيفة والمندرة المغلقة على الدفء والولد الجميل من الأم الجميلة.

والغرباء الذين حضروا سوق السبت تذكروا يوم هربوا من حر الظهيرة إلى ظلة دارها، وقعدوا حول القفف والمقاطف يطردون الجوع بالأرغفة والطعمية، ولما عطشوا طلبوا الماء من الباب القريب، حين خرجت عليهم «كريمة» بالقلة تنضح بالماء قضموا أكفهم بدلا من اللقمة، رووا الحلق بالماء الممزوج بماء الورد كما رووا القلوب العطشى بحب العيون السود الضاحكة.

وأكدوا أن السوق -بعد ذلك- ازدحمت بالشارى والبائع من كل بلد، كانوا جميعا يتجهون ليبلوا الحلق الجاف بماء السبيل الذى أقيم عند باب الدار.

حتى أن أعيان الكفر ارسلوا المنادى يعلن في الشوارع وفي البلاد المجاورة أن السوق طيلة أيام الأسبوع، وبعد أن كانت تقام بالساحة في آخر الكفر ستكون في الشارع الذى تسكنه «كريمة».

والحاوى الذى كان يوهم الناس بعبور الطوق بين السكاكين والنار، قفزه في خطفة لما رآها تبص عليه من سطح الدار، كذلك بائع البوظة والعطار والسمكرى هدموا خيامهم القديمة في الساحة، وأقاموا غيرها أمام بابها المفتوح.

وكانت «كريمة» ترد على كل الرسائل التى تلقى إليها أو تندس تحت عقب الباب. ردت على الصبى الذى كتب «أحبك أكثر من أمى وأبى وأختى الكبيرة..» وذيل الرسالة بالنشيد المقرر فى كتاب المطالعة، كذلك ردت على الفتى الذى نقل لها رسالة من كتاب رسائل الغرام، وعلى رسالة الفلاح الذى كتب «يا بنت سيد البلد يا تُخْن بعضيكِ.. أمتى يغيب القمر وانط وآجيك».

– ٣ –

قال حينما أعادها لأبيها: بنتك فاجرة ولعوب.. فاجأتها لما نزلت إجازتى وسط الأسبوع مع فتى جيرانكم، رغم أنى قد أغلقت عليها الأبواب والنوافذ، وهذا دليلى. وألقى فى وجه أبيها جوز نعال.

وفوجىء الناس لما رأوا –فى هذا اليوم– الصبح يطلع من دار «كريمة». ابتسمت لهم ولوحت باليد، لكن يا ولداه. لقد شخللت الأساور بمعصمها، وكانت من قبل غائصة فى ليونة الذراع، والبسمة كانت باهتة فى الوجه الباهت.

قالوا: لقد عادت لأن أولادنا كسروا أبواب زوجها المغلقة.

لكن الجارة العجوز أكدت أن البنت قد باحت لها بسرها وقالت: يا خالة منذ أول ليلة لم ينتصب له بشر، زرت معه المشايخ فأفتوا بأنه قد خطى العمل الذى حطه العدو تحت عتبة

الباب، حفرنا العتبة وعثرنا عليه معقودا كالحواية، ولما جاءنى بالليل. فقط بلل وجهى بلعابه، وملأ أذنى بلهاثه المحموم، ثم ركلنى ونام، وقلت له نعود للشيخ فأفتى بأن العدو هذه المرة قد ربط العمل برأس قرموط، ولو كان القرموط فى نهرنا كنت قد أحضرته. ولكنه اللعين قد عبر النهر إلى المحيط الواسع.

- ٤ -

قال الناس: ها هى تعود وليس بأحشائها شىء.. وقد فارقها الجمال.

وهمسوا فيما بينهم: ربما كان الذى أخذها إلى آخر البلاد كابن بائع السمك ليس فيه للنسوان. وسخروا: أو يكون العيب فيها وتخفيه، أم ما بال رجال هذه الأيام أعضاؤهم مرخية؟

و«كريمة» لما سمعت بذلك حكت للجيران.

بأن الرجل الذى كان قد سمع بجمالها واشتراها من أبيها بثمن رفع له أعمدة العمارة الجديدة، أسكنها الشقة فى الدور العاشر تطل شرفتها على بحر واسع يقال له النيل، له قنطرة لا ينقطع عنها عبور السيارات ليل نهار. وحلفت بالله العظيم أنه لم يقربها، ولم يجمعهما فراش، فقد كان يأتى بفتيات لهن أفخاذ عارية وأثداء مدلوقة، يرقصن على دقات موسيقى صاخبة مرة وناعمة مرة أخرى، ولا يتركن كأس الشراب من أيديهن حتى يطلع عليهن نور الله، وأكدت أنها رأته بعينها التى سيأكلها

الدود بين لحم إحداهن فى الحجرة المغلقة عز النهار، وبكت حين أتت إلى ذكر الرجل الذى دخل عليها عاريا - بالليل - يرفع عنها الغطاء، ويشلح ثوبها، ولما صرخت تستغيث دخل ليصفعها ويطلب منها أن تستجيب للرجل.

وقالت إنه منذ هذه الليلة وهى تغلق باب غرفتها على نفسها كلما حضر الرجال الذين يحملون الحقائب السوداء الممتلئة بالجنيهات الورقية.

وأنها كانت تسمع من خلف بابها طرقعات الكأس وكركرة الجوزة، وقالت إنها جمعت خلقاتها وعادت حين دعاها لتجمع حاجاتها وتعد نفسها للسفر البعيد إلى بلاد يقال إن لرجالها وجوها حمرا وشعرا ذهبيا وعيونهم زرقاء بلون ماء النهر.

— ٥ —

وحكى الناس فيما بينهم أن «كريمة» لم تعد تنفع لأحد من أبنائنا.. وأن ماء سبيلها ستظل حتى يأكلها العطن.

وجاء واحد منهم وادعى أنه رآها فى البلد المجاور تتأبط ذراع ولد يرتدى سروالا محزقا، وله شعر يسقط حتى صدغية وأنها قد دخلت معه مكانا يلتقى فيه الفاسدون.

وحكى آخر أنه رآها -وهو لا يكذب- فى الخرابة مع واحد من صبية موقف السيارات فاردا شعرها، يبوسها بين ثديها، وحلف بالنبى أن سروالها عنده فى الدار، فقد خالسهما والتقطه

حين استلقيا على أرض الخرابة. وأنه قد قذف الولد بحجر فى وجهه، وهو لذلك مجروح ويربط رأسه بشريط أبيض.

والجارة القريبة أقسمت لمن حولها –رغم أن ربنا أمر بالستر– أنها رأتها مستلقية على حطب السطح يركبها ولد بانت فلقتاه واضحتين تسدان عين الشمس.

وأنها حاولت أن ترى وجهه، لكنها لم تر غير الفلقتين، ولم تسمع غير صوت تكسر الحطب وتأوهاتها الحميمة، وانتظروا جميعا أن تخرج عليهم «كريمة» يوما ببطن منتفخ يحوى ولدا لا يعرفون له أب.

عباءة الليل

كنت أنا وهى والليل فى مدينة كبيرة نائمة، بعد أن فارقنا الصديق سكران بخمر حانتين، وقف يودعنا ليلحق بآخر قطار، ولم يدعنا معه، فهو يسكن الغرفة الضيقة التى لا تتسع إلا له ولزوجه وبنتيه.

قلنا الليل: يا ليل هل تؤوينا؟

قال الليل: أنا أكتم سر العشاق والسراق، وأستر على فرشة الزوجين، وأدارى نومة الفقير.

قلنا: فنحن عاشقان غريبان، ليست هذه مدينتنا، غادرنا بلدنا لأنها تترصد المحبين ، وتفضح سر القلوب.

قال: شقا طريقكما وأنا معكما أسمع وأرى.

وكان طريقنا طويلاً وبعيداً، قلت آخذها إلى غرفتى التى منحها لى صديق.. ولأجرب معها الحب، ولأكون مثل كل الأحبة الذين قرأت عنهم، ورأيتهم على الشاشة يتأبطون الأذرع منطلقين فى خفة، يرمى الهواء شعرهم إلى الوراء، وحولهم تطير النسمة المغردة، وينمو الزهر المبتسم، وتزقزق لهم بلابل لا تراها العين. وخفت لأن صديقى حين أسكننى قال: لا تصحب إلى غرفتك امرأة، فأنا أخاف الناس، ولا تأتى آخر الليل سكران، فأنا لا أحب الخمر التى حرمها الله.

تمنيت لو أجد البوابة الحديد مفتوحة، سنمرق منها خفية، وأدير فى ثقب الباب مفتاحى الكتوم ولا أشعل مصباحاً، ففى الظلمة سأرى على نور وجهها الحبيب، ولا أرفع صوتا، فيكفينا همس القلوب.

هناك وجدت المصباح يرش على البوابة نوره المتشبث كبرص، وسقطت خيالاتنا على قضبان الحديد المربوطة بالسلسلة الغليظة، نظرت إلى أعلى، ولم أقدر أن أرفع صوتى لأنادى عليه، وغاظنى انغلاق نافذتى القريبة، نظرت إلى وجهها الشارد وقلت: لا تحزنى.

قالت: طالما أنا معك لا يهم.

والليل كان قابعاً هناك فى الأرض الخلاء، يكتم ضحكة.

قلت: ياليل.

قال: أنا لا أغلق البوابات.. فأرضى رحبة، ويدى بعرض السماء.

قلنا: ولكننا نريد جدارا وفراشاً.

قال: أنا لا أملك غير عباءتى السوداء.

قلت لها: فلنذهب إلى صديق قريب من هنا. ينام النهار و يسهر الليل.

قالت: كيف ننام عند غريب؟

أحطتها بذراعى، وقلت: لا تبالى.. فقلبه مفتوح.

كان النور يخرج مع الموسيقى من شيش نافذته المغلق الضلفتان، وتردد صوت الطرقات كأنها فى فراغ، وكانت هى

واقفة عند البوابة ترقب الباب من الداخل، خبطت مرة أخرى، وناديته باسمه، وفي المرة الثالثة انطفأ النور، وخفت صوت الموسيقى، وانتظرنا، فلم يخرج أحد، قالت: لا فائدة.

وعدنا نعبر بقع الماء بين البيوت المغلقة الأبواب، كانت في الصمت وفي الضوء القليل شبيهة بشواهد القبور، وألف عين من وراء النوافذ ترقبنا، وتحبس ضحكات متشفية.

والليل العجوز يسير خلفنا يخب في عباءته، كنا نسبقه بمسافة، وهو على آخر ظلنا المتعرج، مجتهدا في مشيه.. يحاول اللحاق بنا، يرفع العباءة المهترئة من حين لآخر، ويلقيها على كتفه فتلم بعثرة لحيته الرمادية.

على أول الشارع الكبير كانت السيارات المجنونة تمرق مسرعة، سرنا على الرصيف فرحين بالنور الغامر، وإن كان قد جمع باصفراره قليلاً من الوحشة في جانب القلب.

خرج علينا الشرطي فجأة من وراء سور تنتشر عليه الأشجار المتشابكة ظلمة قاتمة، كان وجهه مشدودا، وأسنانه سوداء، بل كان لباسه كله أسود: البيريه، والسترة، والسروال، والنعل، تقدم نحونا، فكدنا نرجع بظهورنا فارين، حمامتان سقطتا بغفلة على «خيال ماتة»، وكانتا تمنيان نفسيهما بحب وفير في أرض خصيبة.

قلنا: نحن أخوان ذاهبان إلى قريب يحتضر.

ونظر خلفنا فرأى الشبح الكهل، فتراجع وقال: لا تفعلاها مرة أخرى.. فإن الدولة تدفع لي راتبي من أجل أن أمنع أمثالكما من السير أثناء الليل.



وانطلقنا.. فى البدء سرنا بجوار السور متلاصقين نخاف من انقضاض اليد على أقفيتنا وبعد أن سرنا مسافة معقولة، مشينا متحررين، ولكننا لم نتكلم، فقط نظرنا إلى الوراء لنطمئن، فواجهتنا الابتسامة فى الوجه العجوز، والفم المفتوح كطاقة مقبرة مهجورة.

فى المقهى المفتوحة على الميدان الواسع، والتى تظل ساهرة طول الليل، جلسنا على منضدة، طلبنا قهوة تعين على السهر، وتقاوم النوم الذى بدأ يتسرب. أمسكت بكفها كنت أود أن..

قالت: وأنا.

ولا أدرى إن كانت عرفت قصدى، فأنا كنت أمنى نفسى بليلة ينفتح فيها القلب، ويقول لها كل ما طواه تحت لسانه المتلعثم، وكنت أريد أن أقول لها كلام العشاق المعتاد، لقد أحببتك من أول نظرة، جرحتنى عيونك، وحين عرفتك قلت هى الفتاة الممنوحة لى من السماء، سأدفن أحلامى فى صدرك، وأطوي فى صدرى أحلامك، وإننى أرى فى عينيك مدينتى البهيجة بأضوائها، وطيرها المحلق فى سماء لا تعرف الغيم، ولا تعرف المطر، صحو مقيم وأبدى، وشمس رحيمة لا تغرب، نهار خالد.

وفى اللحظة التى أردت تأمل عينيها لأتشجع وأقول، رأيته على المنضدة البعيدة، قابعاً تحت مصباحها الذى ينز ضوءاً بلون السل. كان يهرش جنبه بيد مقشوطة الجلد، ويبدو كأنه

مشغول عنا، ثم رفع لى عينه فجأة، فارتد بصرى، وماتت الكلمات فى حلقى.

وكنت أريد أن أقول له: لم نعد بحاجة إليك.. فنحن فى ونس الناس والمصابيح. ولكنه واصل الهرش، وواصل بحلقة كمن يقول:لقد استعنتما بى، وأنا لا أتخلى بسهولة.

قالت: القهوة لم تفعل شيئا.. والنوم غلبنى.

قلت: اقتربى منى، ونامى على كتفى.

ارتاح رأسها على كتفى، وأملت برأسى، وجعلت الخد على الخد، ويدها كانت تحت المنضدة فى يدى، قلت فى أذنها: أحبك.

وحركت شفتيها بخدر هو مزيج من خدر النوم والحب الهادىء، وكأنها تردد كلمتى، وغفونا.. كان نوماً جميلاً خالياً من الأحلام والكوابيس، قامت تفرك عينيها وترجع شعرها إلى الوراء، وأنا بربشت بجفونى، وهالنى أن النهار كان يحبو فى الميدان، يحاول أن يشب على الجدران العالية، ولما نظرت إلى المنضدة البعيدة وجدتها فارغة، والكرسى كان مائلا على طرفها، ولكننا لم نسمع شقشقة العصافير، فقط رأينا صحوة مدينة كبيرة، تدور فى شوارعها سيارات مضببة الزجاج، وعربات تجرها الخيل، عليها أقفاص الفاكهة والخضار، وجنود يجرون حول اسطوانة الميدان، وكان صوت أحذيتهم الثقيلة، يسمع من موضعنا.

وسوسة

أبى هناك فى الزرع مع رجاله، وأنا هنا على الحصير مربعاً أمام طبق الجبن والفلفل المهروس، وهى فى المرحاض تطلق ضراطها الذى يقلب المعدة.

وأطل الشيطان الذى يسكن الصدور، وهمس فى أذنى: هذه فرصتك التى لن تتكرر.. فأرحت يدى إلى جنبى، وشعرت بالعرق على جبهتى، وقلت: لا.. أنا خائف.

وتذكرت أمى التى تعيش وحدها هناك، ورأيتها وهى قائمة فى ظلمة الفجر، تختم صلاتها، وتشكو إلى ربها قلة حيلتها.

ورأيتها وهى تدعو الشيخ، الذى قعد فى الصالة، أمامه الكتاب الأصفر القديم واضعاً بين صفحاته منديل أبى، ويردد بلا انقطاع التراتيل الغامضة التى تزلزل القلوب، وتستحضر الجن المختفى فى جدران البيت، ينهى تراتيله بعد غياب طويل، وراء عين مغمضة لا ترى دنيانا، وترى العوالم المجهولة التى يسكنها الجن القادر على نقل الرجل من مكانه حتى لو كان فى آخر الدنيا، ويغمس الشيخ قصبته فى الحبر الأحمر، ليخربش كلاماً مهوشاً على الورقة الصغيرة، ومن حقيبة الجلد المهترئه

يخرج الخرق التي يلفها على هيئة حواية، وأرى أمي وهي تحفر لها تحت عتبة الباب، حتى إذا مر أبي من فوقها، فلا يعود إلى امرأته القديمة أبداً، ويظل معنا في دارنا، يرعانا، ويحافظ على عاداته التي تحيي الدار، صحوه المبكر إلى الجامع، طبق القشدة واللبن وبراد الشاي، وصوت القرآن يتردد من المذياع الموضوع على أرضية الشباك الذي يطل منه برأسه، ليصدر أوامره إلى رجاله الواقفين في الشارع، يجمعون حبل البقر والجاموس، ونعير الجاموس، وجعجعة الجمل، تأتي من قضبان الشباك إلينا، نحن النائمين في الحجرة الداخلية، واستيقاظنا، واجتماعنا حوله، وسؤاله الصارم عن صلاة الصبح، ونمدد أمامه -أنا وأخي- حصيرة الصلاة، ونصلي متململين كارهين للماء البارد، صلاة خضوع للأب الجالس بقميصه الأبيض وصداره وعمامته المحبوكة على رأسه الصغير.

وخرج الصوت مرة أخرى، وفح في أذني: هذه فرصتك التي لن تتكرر.

قلت: أنا خائف.

وكانت هي في المرحاض، تحادثني من الداخل: هات رغيفين من المشنة.

وأرد عليها: جبت عيش «ملدن». قالت: أسناني لا تحتمله.

قلت لها: أبلله بالماء.

وقمت بفرائص سائبة، أتحرك نحو الحنفية الزنك الموضوعة على فنطاس صغير، بحجرتها، ولفحتنى نسمة باردة هبت من الجرن عبر سلك الشباك وكانت الحجرة نظيفة ومرتبة، والناموسية مرفوعة، ومعقودة فى منتصف السرير كنجفة، وتنكرت تلك الليلة.

كان جمع القطن، وتأخرت هنا مع الرجال، لأرى العمل الليلى، أكوام بيضاء هائلة، وأكياس جديدة بها رائحة الجوت، يقف الرجل بداخلها، ويشد حواف الكيس، ويدك رجليه بقوة، بينما الآخر يرفع القطن من الأكوام ليضعه تحت القدمين، وأبى بقميصه الأبيض، وصداره اللامع، يتحرك هنا وهناك، يجس بإصبعه الأكياس المدكوكة، ويأمر بمزيد من الحشو، ولما انتهى العمل نام الرجال فى حجرة الفرن، وصحبنى أبى لأنام معه فى حجرته، فأدخلنى فى كيس جديد، وقال: إنه يحميك من الناموس.

وتمددت إلى جوار هذه الحنفية، وصعد هو مع زوجه، وانسدلت عليهما الناموسية، ولم أستطع أن أمنع نفسى من الشعور بالخيانة، ولم ينغلق لى جفن، حتى سقطت الضفدعة الكبيرة الباردة على وجهى، فصرخت بأعلى صوت، وجاءتنى شخطته القوية من داخل الناموسية: نام نامت عليك حيطة. وتردد صوتها اللاذع: دلع عيال.

ولم أنم حتى استيقظ أبى قبل آذان الفجر ورأيت عريه فى الطشت وسط الحجرة، وهى جالسة وراءه تدعك له ظهره بالليفة والصابون، ويتردد فيما بينهما حوار خافت.

انحنيت على الحنفية، وفتحت صنبورها فوق الأرغفة الجافة، ولففتها فى الفوطة المعلقة على المسمار، وعدت لأضع الأرغفة فوق الحصير إلى جوار الأطباق.

وسمعتها تسأل من الداخل وهى تطلق هواءها المكتوم فيخرج رفيقاً وممطوطاً فى صوت لانهاية له: خلاص؟ قلت: خلاص.

وتردد الصوت مرة أخرى بلهفة أشد: لا تضيع فرصتك.. هناك الرشاشة أنت تعرف مكانها.

وامتدت يدى إلى قطعة الجبن، وخرجت بها إلى الجرن، ورأيت أبى هناك وسط الزرع رافعاً الشمسية البيضاء الزاهية، وأمامه الرجال فى الصفوف والظهور المحنية تسير أمامه فى حركة موحدة، ورفعت الباب الخشبى القديم لمخزن التبن، وطنت فى أذنى نحلة هارية من الخلية القريبة، هششتها بعيداً عن وجهى، وخطوت فوق العتبة، بالقرب من كومة التبن، وجدت الرشاشة نائمة بلونها الأخضر الكالح، نظرت ورائى، فلم أر غير الدار المقابلة مغلقة النوافذ، وشجر الكافور كابساً على سطحها، فى نومة كسلانة، وفتحت البزبوز، فدفع السائل الأبيض فى خط نحيل، وصفر السائل المحبوس عند خروجه من الثقب الضيق،

فاضطربت يدى لحظة، وأغلقت المحبس من جديد، وخفت أن يرى أحدهم هذا السائل المدلوق على التبن، فحركت قدمي، ونثرت التبن فى كل اتجاه لأخفى الأثر وعدت.

وكانت هى ما تزال بالمرحاض تنزح الماء، وسمعت طرقاتها المنتظمة، وهى تنقل الماء من الإناء إلى موضعها الملوث، فعجلت بإعادة القطعة مرة أخرى فى الطبق، ومسحت كفى في الخرقة القديمة الملقاة في الركن، وربعت رجلى أمام الأطباق، وقلت ستجلس هى فى هذه الناحية، فدورت الطبق، حتى تصير قطعة الجبن التى بللتها من الرشاشة أمامها، وانتظرت، وخرجت هى تجفف الماء الذى يقطر من أصابعها فى جوانب الجلباب.

وسألت: أنت ما كلتش ليه؟ فقلت: أنا منتظرك.

وجلست أمام القطعة بالضبط، وقالت: طبخت للرجالة، ووفرت الباقى لعشاء أبيك.

وقلت: أى لقمة.

ولفت الطبق حتى جعلت قطعة الجبن المرشوشة أمامى، وقالت: كل.. ونظرت إليّ نظرة أفزعتنى، ووقفت اللقمة فى حلقى، قالت: كل.. ورفعت قطعة الجبن إلى فمي، ودستها بالقوة، وهى تصرخ فى وجهى: كل..

صدر للمؤلف:

١- الضحى العالى - مجموعة قصصية١٩٨٥- دار شهدى
٢- عكس الريح - مجموعة قصصية ١٩٨٧- هيئة الكتاب
٣ - خبز الصغار- مجموعة قصصية ١٩٨٨- الفتى العربى
٤- وش الفجر - قصص للأطفال ١٩٩٣- هيئة الكتاب
٥- عطش الصبار - رواية١٩٨٩ - دار الهلال

تحت الطبع:

- طلل النار - قصص قصيرة
- الجزيرة البيضاء - رواية

اصدارات الهيئة العامة لقصور الثقافة

* ضمن اهتماماتها المتعددة بالنشاط الثقافي بمختلف أشكاله، تعنى الهيئة بإصدار عدة سلاسل من الكتب هي:

أولا: سلسلة «أصوات أدبية»

– مخصصة لإبداع أدباء مصر في كل مكان في الشعر، في القصة في الرواية.

– تصدر اسبوعيا.

ثانيا: سلسلة «كتابات نقدية»

– تواكب الإبداع الأدبي بالدراسة والتحليل، ولاتغفل النظريات النقدية والعربية والعالمية. وتفتح صدرها لكل فكر جاد يتسم بالطابع النقدى

– تصدر شهريا. في منتصف كل شهر.

ثالثا: كتاب «الثقافة الجديدة»

– يتناول حياة أبرز المفكرين وأعمالهم وأدوارهم في إضاءة العقل والوجدان ودراسة تحليلية لإنجازاتهم في خدمة الفكر والإبداع العربي.

رابعا: سلسلة «مكتبة الشباب»

– تأخذ على عاتقها مهمة التثقيف العام بتقديم كتب مبسطة تتناول مختلف ألوان المعرفة.

– تصدر أول كل شهر

خامسا: كتاب الأدباء

– يهتم بتقديم الواقع الثقافي والإبداعي لكل إقليم على حدة ويُعد بمثابة بانوراما كاشفة لحركة الإبداع الأدبي في أقاليم مصر.

– يصدر شهريا

سادسا: إبداعات:

– كتاب شهرى يهتم بنشر إبداعات الشباب دون الخامسة والثلاثين.

سابعا: آفاق الترجمة:

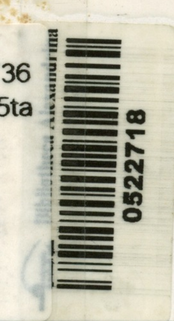
– كتاب شهرى يهتم بنشر الأعمال المترجمة في الأدب والنقد.

صدر من هذه السلسلة

رقم الايداع ١٠٤١٢/٩٥

الأمل للطباعة والنشر ت: 3904096

هذه مجموعة قصصية تنقل إلينا تجربة شديدة الخصوبة والثراء، جعلت الكاتب يغيّر من موقع الراوى أو السارد من حالة إلى أخرى لكى يجعلنا نرى أشياء، لم يكن من الممكن ادراكها، ويكتشف مستويات للوجود الانسانى لم يكن من المتاح التعرف عليها، لولا تجربة الغربة عن الوطن، والاغتراب عن الذات والجسد التى عمقت من الوعى ونوعه وكيفيته، وهذه المجموعة شغوفة بالحياة والبشر، وتفتح الحواس على كل مفردات الكون والحياة والبشر..



شركة الأمل للطباعة والنشر والتوزيع